عبر ودلالات

من أحداث السيرة النبوية

(العهد المكي)

د. عبد الله بن علي بصفر

اعتنى به وأعده للطباعة

د. محمد مصطفى أحمد شعيب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم
جـــدة – حـــي النســـيم
طريق الملك عبد الله

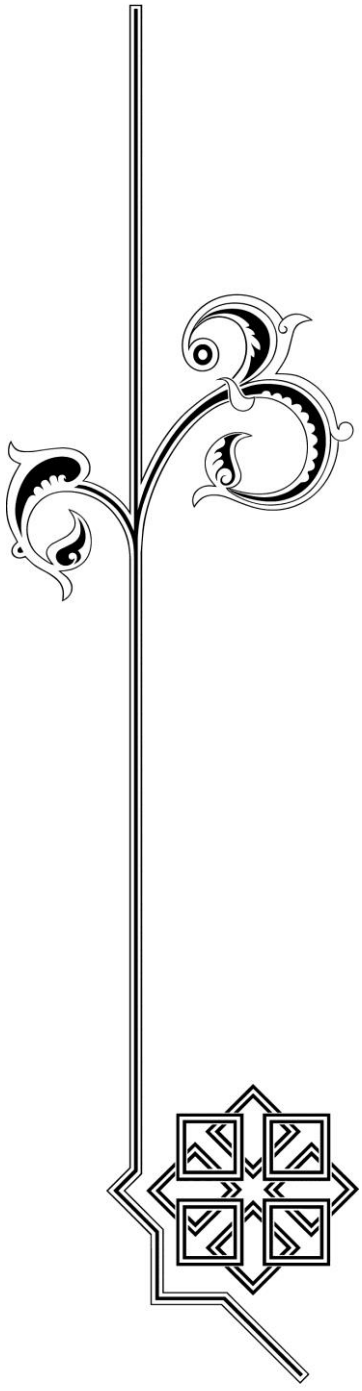


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فقد وفقني الله تعالى على مدار سنة كاملة لإلقاء خطب حول السيرة النبوية في العهد المكي، وقد ركزت في هذه الخطب على الدروس والعبر المستفادة، وما يسمى بفقه السيرة، ووجدت أن هذه السيرة مجالاً رحباً ومتجدداً في هذه الدروس، وكأنها تخاطب هذا الزمان، وكل زمان.

وهذا دليل على أنها سيرة مترجمة للقرآن الكريم، فهي التفسير العملي للقرآن الكريم، وهذا يجعل لهذه السيرة العطرة وصفاً تربوياً وتوجيهاً مهماً، ولعل الفرصة تتاح لأكمل العهد النبوي وما فيه من مناسبات وأحداث، لتتضح الصورة الكاملة .

ولا بد هنا من التأكيد على المربِّين في المدارس، وخطباء المساجد، والدعاة والآباء والأمهات بعدم التقصير في ضرب الأمثلة الحية من سيرة النبي ﷺ، فإن فيها تأثيراً عظيماً في تربية الأبناء على الأخلاق الراقية، والسلوك الحضاري الرائع .

كما أن لوسائل الإعلام المسموعة والمرئية دور كبير في بث هذه السيرة، واستنباط الأمور التي تتعلق بحياة الناس وواقعهم، ففي ذلك الخير العظيم بإذن الله تعالى .

وقد قال الرسول ﷺ : «**أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: على حب نبيكم، وحب أهل بيته، وعلى قراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، مع أنبيائه وأصفيائه**»[1].

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه :

د.عبد الله بن علي بصفر

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (١/ ١/ ٢٤)، وقال الألباني في«سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٢١٦٢): ضعيف جداً.

العبرة والعظة من بداية أمر النبي ﷺ

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، إن في السيرة العطرة مواقف عظيمة وكثيرة نأخذ منها العبرة والعظة، وإذا أردنا أن نأخذ العبرة والعظة في أول أمر النبي ﷺ، فلا بد لنا أن نذهب إلى مكة قبل أن يكون بها أحد؛ لنعرف كيف بدأت تلك القصة العظيمة، وذلك التاريخ الطاهر، وتلك السيرة العطرة؛ يقول ﷺ مخبراً عن مبدأ أمره: «**إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل**[1] **في طينته، وسأخبركم عن ذلك؛ دعوة إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام**»[2].

بدأت قصة النبي ﷺ بدعوةٍ صالحةٍ من نبي من أنبياء الله تبارك وتعالى، بل هو أبو الأنبياء، وخليل الرحمن إبراهيم – عليه السلام –، فإنه لما أخذ في

---

(١) منجدل: ملقى على الجدالة وهي الأرض. «لسان العرب» (١١/ ١٠٤) ط ٣، دار صادر، بيروت .

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند»(١٧١٥١) (٢٨/ ٣٨٢) ط١، دار الرسالة، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤٢٥) (١٣٧٤)، وقال البيهقي عقبه: «رواه أبو بكر بن أبي مريم، عن سويد بن سعيد، عن العرباض، عن النبي ﷺ: «**إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين**» وإنما أراد – والله أعلم – أنه كذلك في قضاء الله وتقديره قبل أن يكون آدم – عليه السلام –...، وأما بشارة عيسى – عليه السلام – فهو أن الله تعالى أمر عيسى – عليه السلام –، فبشر به قومه فعرفه بني إسرائيل قبل أن يخلق».

بناء الكعبة وطلب من ربه القبول؛ استمر في الدعاء بقوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1]، دعوة صادقة من قلب صادق، فكان النبي المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ.

ونبي الله إبراهيم - عليه السلام - وحياته وما فيها من الصبر والجهاد والهجرة، وكلنا يعرف قصة إبراهيم - عليه السلام - لما دعا قومه إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام، وكيف أنهم جمعوا له النار ورموه فيها، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»[2]؛ فكان الحفظ والرعاية من الله سبحانه: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[3]، فخرج من بلاد العراق مهاجراً إلى بلاد الشام هجرةً في الله ولله، وكانت معه زوجه سارة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ ابن أخيه ﴿ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) «صحيح البخاري» باب إن الناس قد جمعوا لكم (٦/ ٣٩) ط . دار طوق النجاة، بتحقيق: محمد زهير ناصر.

(٣) الأنبياء: ٦٩.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، فلم يأت نبي بعد إبراهيم - عليه السلام - إلا من ذريته إكراماً له ولجهاده وصبره، فهاجر إلى بلاد الشام كما قال ﷻ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، إلى بيت المقدس، الأرض المباركة؛ فهاجر إليها نبي الله إبراهيم - عليه السلام -، ثم حصل قحطٌ في بلاد الشام فذهب نبي الله إبراهيم وزوجه إلى مصر بحثاً عن الطعام والشراب، وهرباً من ذلك القحط الذي أصابهم.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيمُ - عليه السلام - إلا ثلاثَ كَذَبَاتٍ، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[4]، وقال: بينا هو ذات يوم وسارَةُ، إذ أتى على جَبَّار من الجَبَابِرَةِ فقيل له: إنَّ ها هنا رجلاً معه امرأةٌ من أَحْسَنِ الناسِ، فأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَه عنها، فقال: من هذه؟، قال: أُختي. فأتى سارةَ فقال: يا سارةُ لَيْس على وجهِ الأرضِ مُؤمِنٌ غيرِي وغَيْرُكِ، وإن هذا سأَلَني فأخبرتُهُ أنكِ أُختي، فلا تُكَذِّبيني. فأَرْسَلَ إليها، فلما دَخَلَتْ عليهِ**

---

(١) العنكبوت: ٢٦، ٢٧.

(٢) الأنبياء: ٧١.

(٣) الصافات: ٨٩.

(٤) الأنبياء: ٦٣.

ذَهَبَ يَتَنَاوَلُها بيده فَأُخِذَ، فقال: ادعي اللهَ لي ولا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ، ثم تَنَاوَلَها الثانيةَ فأُخِذَ مِثْلَهَا أو أَشَدَّ، فقال: ادعي اللهَ لي ولا أَضُرُّكِ فَدَعَتْ فأُطْلِقَ، فدعا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فقال: إنكم لم تأتوني بإنسانٍ، إنما أتيتُمُوني بشيطانٍ، فأَخْدَمَها هاجَرَ، فأَتَتْهُ وهو يُصَلِّي، فأَوْمَأَ بيده: مَهْيَا. قالت: ردَّ اللهُ كيدَ الكافِرِ، أو الفاجِرِ في نحره، وأَخْدَمَ هاجَرَ». قال أبو هريرة: تلك أُمُّكُمْ، يا بَني ماءِ السماءِ[1].

وقد أوصى رسولنا ﷺ بأهل مصر خيراً، وذلك لأجل الرحم التي تربطنا بهم عن طريق السيدة هاجر رضي الله عنها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستفتحون أرضاً يُذكَرُ فيها القيراطُ، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذِمَّةً وَرَحِمًا**» أو قال: «**ذِمَّةً وصِهْراً فإذا رأيتَ رجلين يقتتلان في مَوْضِعِ لَبِنَةٍ، فاخْرُج مِنها**». قال: فرأيتُ عبدَ الرحمن بنَ شُرَحْبِيلَ بنِ حَسَنَةَ وأخاه ربيعةَ يختصمان في موضع لَبِنَةٍ، فخرجتُ منها. وفي روايةٍ: «**فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذِمَّةً وَرَحِمًا**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٣). قال الإمام النووي - رحمه الله -: «قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، وأما الذمة فهي الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم، وفيه معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ، منها: إخباره بأن الأمة تكون لهم قوة

ولما نجَّا الله سارة – رضي الله عنها– من ذلك الطاغية، خرجت من تلك الديار – ومعها هاجر– مع إبراهيم – عليه السلام – الذي أكرمه الله تبارك وتعالى بهذه الكرامة، فعاد مرةً أخرى إلى الشام وإلى الأرض المباركة أرض فلسطين، وهناك بلغ السن من إبراهيم مبلغاً حتى جاوز الستين، وزوجه سارة عقيم لا تلد، فخافت سارة أن يموت إبراهيم وليس له ولد، فوهبته هاجر فتسرَّى بها، فأنجبت له أول أولاده إسماعيل – عليه السلام –، فلما أنجبت له إسماعيل غارت سارة الصِّدِّيقة، فكان الأمر من الله تبارك وتعالى لإبراهيم – عليه السلام – أن يُبعد هاجر عن سارة، فاختار لها أرض فاران – مكة المكرمة – لتكون بداية تلك القصة الرائعة التي نحن بصددها اليوم، والتي هي مبدأ أمر رسولنا ﷺ.

وهنا درس وعبرة: فهذه هاجر المرأة المصرية الزكية الطاهرة التي أبت أن تؤذي ولية نعمتها، ورفضت أن تؤذي سارة التي أحسنت إليها وأكرمتها، فآثرت الغربة وفاءً لسارة على أن تبقى معها لأنها شديدة الغيرة وعقيم لا تلد؛ فكان جزاؤها أن أكرمها الله تبارك وتعالى بذلك الكرم الكبير، وذلك

وشوكة بعده بحيث يقهرون العجم والجبابرة، ومنها: أنهم يفتحون مصر، ومنها: تنازع الرجلين في موضع اللبنة، ووقع كل ذلك ولله الحمد». «شرح صحيح مسلم» (١٦ / ٩٧) ط. دار إحياء التراث العربي.

الفضل العظيم الذي يعطيه الله تبارك وتعالى من يشاء من عباده، وهكذا دائماً إذا صبر المسلم وتوكل على الله فإن الله ﷻ ينصره ويؤيده ويوفقه.

روى الإمام البخاري في صحيحه في قصة نبع زمزم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أَوَّلُ ما اتخذ النساءُ المِنْطَقَ[1] من قبل أُمِّ إسماعيل، اتخذت مِنْطَقاً لتُعَفِّيَ أَثَرَها على سَارَةَ[2]، ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنها إسماعيل وهي تُرْضِعُهُ، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحَةٍ[3] فوقَ زَمْزَمَ في أعلى المسجد[4]، وليس بمكَّةَ يومئذٍ أَحدٌ، وليس بها ماءٌ، فوضَعَهُمَا هُنَالِك ـ تخيل ذلك المكان الذي ينعم اليوم بما ينعم من بنيان وحياة لا تتوقف ليلاً ولا نهاراً، كان في ذلك التاريخ ليس فيه أحد، فوضعهما في ذلك المكان الذي حدَّده الوحي من الله تبارك وتعالى، وهو أعلم أين يكون بيته، فقد أثبت اليوم علماء الجيولوجيا أن موقع الكعبة هو في مركز الأرض؛ فمن الذي علَّم إبراهيم - عليه السلام - ذلك، إنه الله تبارك وتعالى، فلما وصلت إلى ذلك المكان تركها وطفلها

---

(١) هو ما تشد به المرأة وسطها.

(٢) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٠٠) : «وكان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم فحملت منه بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء، فاتخذت هاجر منطقاً فشدت به وسطها وهربت، وجرَّت ذيلها لتخفي أثرها على سارة».

(٣) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

(٤) قوله: (في أعلى المسجد) أي مكان المسجد، لأنه لم يكن حينئذ بني.

الصغير بمفردهما؛ امرأة وطفلٌ رضيعٌ في مكان لا يوجد فيه أحدٌ ولا حياة؛ هكذا بدأت القصة بالضعف، ولكن ليس الضعف في كل صوره شرَّاً، بل قد يكون فيه الخير وفيه النصر وفيه العز، كما قال ﷺ: «**إنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم**»[1]، وأعود إلى حديث ابن عباس :- فوضَعَهُما هُنَالِك، ووضع عِندَهُما جِرَاباً فيه تمرٌ وسِقاءً - قربةً صغيرةً - فيه ماءٌ، ثم قَفَّى[2] إبراهيمُ مُنطَلِقاً، فَتَبِعَتْهُ أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتترُكُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟. فقالت له ذلك مِرَارَاً، وجعل لا يلتفت إليها ـ لأن الله أمره أن يفعل، وهو مطمئن إلى وعد الله وأمره، إنه مؤمن من الطراز الأول، ينفذ أوامر الله بكل دقة، وبلا شك ولا تردد ولا حزن ولا هَمّ ـ فقالت له: آللهُ الذي أمرك بهذا؟. قال: نعم. قالت - وهي المؤمنة المصدقة الموقنة بوعد الله ﷻ -: إذن لا يُضَيِّعُنا، ثم رجعتْ.

وهل ضيعها الله؟!، لا والله، بل حفظها ورعاها، وآواها وذريتها وآوى الأمة، بل الدنيا كلها بهذا البيت العظيم الذي جعله الله هدايةً للعالمين، كما

---

(١) رواه أحمد (٢١٧٣١)، والترمذي (١٧٠٢)، وابن حبان (٤٧٦٧)، والحاكم (٢/ ١٤٥)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال محققو المسند: (٣٦/ ٦٠): «إسناده صحيح».

(٢) قفَّى: أي ولَّى راجعاً إلى الشام. وفي رواية ابن إسحاق: «فانصرف إبراهيم إلى أهله بالشام وترك إسماعيل وأمه عند البيت» . انظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٠١) ط. دار المعرفة، بيروت، بتحقيق محب الدين الخطيب.

قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1].

وفي قولها رضي الله عنها: «إذن لا يُضَيِّعُنا» دليل على قوة الإيمان بالله، وصدق التوكل عليه، والثقة المطلقة في رعايته، والاعتماد على الله، وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى، ونتيجة هذا التوكل، ونتيجة الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، والثقة في الله: أنه لن يضيعك، وأنه لن يخيبك، وأنه سيكون معك، ويؤيدك.

فانطلقَ إبراهيمُ، حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2]، وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عَطِشَتْ وعَطِشَ ابنُها، وجعلتْ تنظر إليه يتلوَّى، أو قال: يتَلبَّطُ[3]، فانطلقتْ

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

(٣) قال ابن حجر: (ومعنى يتلبط - وهو بموحَّدة ومهملة - يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض، ويقرب منها،

كراهيةَ أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظرُ هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سَعَتْ سَعْيَ الإنسان المجهودِ حتى جاوزتِ الوادي، ثم أَتَت المروة فقامتْ عليها ونظرتْ هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلتْ ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فلما أشرفتْ على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهٍ - تريد نفسها - ثم تسمَّعتْ فَسَمِعَتْ أيضاً، فقالتْ: قد أسمَعْتَ إن كان عندك غَوَاثٌ، فإذا هي بالمَلَك[1] عندَ مَوْضِع زَمْزَمَ، فبَحَثَ بعقبه، أو قال: بجناحِهِ، حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ[2]، وتقول بيدها هكذا[3]، وجعلتْ تغْرِفُ من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف، قال ابن

رواية عطاء بن السائب «فلما ظمئ إسماعيل جعل يضرب الأرض بعقبيه» وفي رواية إبراهيم بن نافع: «كأنه ينشغ للموت» وهو بفتح الياء وسكون النون وفتح المعجمة بعدها غين معجمة، أي: يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع) . انظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٠١) .

(١) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢): (في رواية إبراهيم بن نافع وابن جريج «فإذا جبريل»، وفي حديث علي عند الطبري بإسناد حسن «فناداها جبريل فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله. قال: وكلكما إلى كافٍ») .

(٢) أي: تجعله مثل الحوض، وفي رواية ابن نافع «فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر» . «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢).

(٣) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢): هو حكاية فعلها، وهذا من إطلاق القول على الفعل، وفي حديث علي: «فجعلت تحبس الماء فقال دعيه فإنها رواء».

عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم**» أو قال: «**لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عَيْناً مَعِيناً**» أي: ظاهراً جارياً على وجه الأرض، فخرج ماء زمزم فرَجاً لتلك المرأة ولذلك الطفل الرضيع، ويظل فَرَجُهُ وإغاثته لكل مسلم إلى يوم القيامة، فكل من شرب ماء زمزم بنية قضاء حاجة من الحاجات – خالصة نيته بذلك – قضاها الله تعالى له، كما قال النبي ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**»[1].

قال: فشَرِبَتْ وأرضَعَتْ ولدها. فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضَّيْعَةَ ـ أي الهلاك ـ، فإنَّ هَاهُنا بيتَ الله يبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يُضِيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرَّابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك[2] حتى مَرَّتْ بهم رُفقَةٌ مِن جُرْهُم ـ أو أهلُ بيتٍ من

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٤٩) (٢٣/ ١٤٠)، وابن ماجه (٣٠٦٢) من حديث جابر ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٥٠٢)، كما رواه الحاكم (١٧٢٩) (١/ ٦٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له، فإن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته مستعيذاً عاذك الله، وإن شربته ليقطع ظمأك قطعه**» قال – أي: مجاهد الراوي عن ابن عباس –: وكان ابن عباس إذا شرب ماء زمزم قال: «اللهم أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاء من كل داء»، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي، ولم يخرجاه».

(٢) قوله: (فكانت) أي هاجر (كذلك) أي على الحال الموصوفة، وفيه إشعار بأنها كانت تغتذي بماء زمزم فيكفيها عن الطعام والشراب. «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢).

جُرْهُم ـ مُقبلين من طريق كَدَاءٍ، فنزلوا في أسفل مكةَ، فرأوا طائراً عائِفاً[1]، فقالوا: إن هذا الطائر ليدورُ على ماءٍ، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلوا جريَّاً أو جَرِيَّيْن[2]، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأُمُّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟. فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فأَلْفَى ذلك أُمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الأُنْس**»[3]. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، وشبَّ الغلام، وتعلَّم العربيةَ منهم، وأنفَسَهم[4] وأَعجَبَهم حينَ شَبَّ، فلما أَدْرَكَ زوَّجوه امرأةً

---

(١) هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه. «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢).

(٢) (جريَّاً) أي رسولاً، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير، قيل: سمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه، وقوله: «جرياً أو جريين» شك من الراوي؛ هل أرسلوا واحداً أو اثنين. «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢).

(٣) قال ابن حجر: (الأُنس) بضم الهمزة ضد الوحشة، ويجوز الكسر أي تحب جنسها. «فتح الباري» (٦/ ٤٠٢).

(٤) من النفاسة، أي: كثرت رغبتهم فيه، وقد قيل إن قصة الأمر بذبح إسماعيل – عليه السلام – كانت قبيل تلك المرحلة وقبل وفاة أم إسماعيل؛ حيث أمر الله تبارك وتعالى نبيه إبراهيم – عليه السلام – أن يزور زوجه وابنه، وليس له في تدبير شأنهم شيء، ولم يفعل في رعايتهم أي شيء، الفعل كله لله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ

منهم، وماتتْ أُمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يطالع تركته ـ أي يتفقد حال ما تركه هناك ـ فلم يَجِدْ إسماعيلَ، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا[1]. ثم سألها عن عَيْشِهم وهَيْئَتِهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضِيقٍ وشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إليه. قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقرئي - عليه السلام -، وقولي له: يُغَيِّرُ عتبةَ بابه. فلما جاء إسماعيلُ كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟. قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسَأَلَنَا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشُنا فأخبرته أنا في جَهْدٍ وشِدَّةٍ. قال: فهل أوصاكِ بشيءٍ؟. قالت: نعم، أمرني أن أقرأَ عليكَ السلامَ، ويقول: غيِّر عتبةَ بابِك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفَارِقكِ، الحَقِي بأهلكِ، فطلَّقها، وتزوَّج منهم أُخْرى، فَلَبِثَ عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعدُ فلم يجِدْه، فدَخَلَ على امرأته فسأَلَها عنه. فقالت: خرج يبتغي لنا. قال :كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم.

﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ٩٩ – ١٠٧]، وبلوغ إسماعيل السعي؛ قيل: ثلاثة عشر عاماً ، وفي هذا من الدلائل والعبر والدروس الكثير، ويكفينا ما فيه من صبر هاجر على ولدها، ومن صبر ولدها، ومن صبر أبيه، وما في قلوبهم من الإيمان الذي كالجبال، حيث يصبرون جميعاً على تنفيذ ذلك الأمر بذبح ولده الذي جاءه على الكبر، وبعد أن شبَّ وبلغ معه السعي، فكان الجزاء من الله لهم خير الجزاء، وهو أن فداه سبحانه وتعالى بذبح عظيم.

(١) أي يطلب لنا الرزق، وفي رواية ابن جريج «وكان عيش إسماعيل الصيد يخرج فيتصيد» وفي حديث أبي جهم «وكان إسماعيل يرعى ماشيته ويخرج متنكباً قوسه فيرمي الصيد». «فتح الباري» (٦/ ٤٠٤) .

فقالت: نحن بخيرٍ وسَعَةٍ، وأثنَتْ على الله، فقال: ما طعامكم؟. قالت: اللحمُ. قال: فما شرابكم؟. قالت: الماءُ. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه**». قال: فهما لا يخلُو عليهما أحدٌ بغيرِ مكَّة إلا لم يوافِقَاه . قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُرِيه يُثْبِتُ عَتْبَةَ بابه[1]، فلما جاء إسماعيل قال: هَلْ أتاكم من أَحْدٍ. قالت: نعم، أتانا شيخٌ حسنُ الهيئَةِ، وأثنتْ عليه، فسأَلَني عنك، فأخبرتُه فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء. قالت: نعم، هو يَقْرَأُ عليك السلام، ويأمُرُكَ أن تُثبِت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمسِكَكِ.

ثم لبثَ عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلاً له تحت دَوْحَةٍ قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنعُ الوالدُ بالولدِ والولدُ بالوالد، ثم قال: يا إسماعيلُ إن الله أمرني بأمرٍ. قال: فاصنع ما أمرك ربُّك. قال: وتُعِينُني. قال: وأُعِينُك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أَكَمَةٍ مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت،

---

(١) (عتبة الباب) كناية عن المرأة، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لها، وهو حفظ الباب وصون ما هو داخله وكونها محل الوطء. وهنا نأخذ العبرة في الزوجة الصالحة والزوجة غير الصالحة، الزوجة الصابرة المحتسبة والزوجة الثرثارة التي تؤذي زوجها وتكلفه ما لا يطيق، ولا تصبر على حاله، وتريد منه أن يوفر له كل شيءٍ تريده حتى ولو من الحرام والعياذ بالله.

فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه[1]، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2]، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

فلما انتهى وفرغ من البنيان أمره الله تبارك وتعالى أن يؤذن في الناس بالحج، فأذن وبعث الله إسماعيل- عليه السلام - رسولاً إلى قومه إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾[4].

---

(١) لما ارتفع البناء لم يستطع أن يكمل إبراهيم البناء وهو على قدميه على الأرض، فجاء له إسماعيل بصخرةٍ كبيرة فصعد عليها نبي الله إبراهيم ورفع البنيان، فأثرت قدمه الشريفة في تلك الصخرة، فرفع الله تبارك وتعالى شأن تلك الصخرة التي رفع الله بها إبراهيم بناء البيت، ورفع الله ذكره إلى يوم القيامة؛ قال سبحانه: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] ، فنسجد عند مقامه لنتذكر أنه ارتقى ليرفع بيت الله تبارك وتعالى ويعلي راية الله سبحانه وتعالى، وهكذا كل من يرفع اسم الله، ويعلي راية الله، ويبني مساجد الله، فإن الله سبحانه وتعالى يرفع ذكره في الدنيا والآخرة.

(٢) البقرة: ١٢٧.

(٣) البقرة: ١٢٧، والحديث رواه البخاري (٣٣٦٤).

(٤) مريم: ٥٤ .

وقد وهب اللهُ تبارك وتعالى إسماعيل - عليه السلام - اثني عشر ولداً، كان منهم نابت، الذي من ذريته كان النسب الشريف لنبي الهدى وصاحب الرسالة وصاحب القدر العظيم محمد ﷺ [1] .

ولما توفي إسماعيل – عليه السلام - دفن بالحجر أيضاً مع أمه، وكان عمره مائة وثلاثين سنة [2].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «**السيرة** النبوية» لابن هشام (١/ ٧، ٨) تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، ط ٢. مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥).

حالة مكة الدينية قبل الإسلام

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا نتحدث في مبدأ ظهور هذا الدين العظيم، في بداية ظهور رسالة الإسلام ونبوة محمدٍ ﷺ التي جعلها الله ﷻ خاتمة الأديان، وخاتمة النبوات، ولا زلنا نجمع خيوط هذه القصة العجيبة التي ننعم اليوم بتدارسها والوقوف على شيء من أحداثها، لنأخذ منها العبر والدروس، ونشكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة العظيمة، نعمة دين الإسلام واتباع سيدنا محمد ﷺ.

وكنا قد تحدثنا عن نبي الله إسماعيل - عليه السلام -، وأن الله ﷻ أرسله إلى قومه في مكة وما حولها من بلاد الحجاز، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾[1]، ثم بعد موته انتقلت زعامة مكة والعرب إلى جُرْهُم[2]، ومكثت فيهم هذه الزعامة مائتي عام حتى ساء أمرهم وظلموا الوافدين إلى مكة واستحلوا مال الكعبة، فاستغلت خزاعة ذلك الأمر وعاونت بكر بن كنانة بن عدنان على حرب جُرهم، وقد انتصروا عليهم

---

(١) مريم: ٥٤، ٥٥.

(٢) انظر: «القول المبين في سيرة سيد المرسلين» لمحمد الطيب النجار، ط. دار الندوة، بيروت (ص ٤٨).

وأجلوهم عن مكة، فعاد بنو جرهم إلى اليمن مرةً أخرى، وعادت مكة إلى بني بكرٍ وخزاعة، وبنو بكر ينتسبون إلى عدنان، وناصرهم خزاعة ثم لم يلبث أن تغلبت خزاعة على بني بكر واستأثرت بزعامة مكة، وسيطروا عليها ثلاثمائة عام، حتى جاء قصي بن كلاب فأعاد لقريش زعامتها ومجدها مرةً أخرى تهيئةً لظهور النبي ﷺ، وهذا ترتيب رب العالمين سبحانه وتعالى.

وظهر في عهد خزاعة رجل أثَّر في ديانة أهل مكة، وهو رجلٌ يُسمَّى عمرو بن لحي الخزاعي، هذا الرجل كان مبدأ نشأته على المعروف وفعل الخير والصدقة، فأحبه الناس حباً عظيماً حتى ولَّوه عليهم ملكاً يتبعون أمره، ويسيرون على هديه، وحدَثَ أن سافرَ هذا الرجل إلى بلاد الشام، حيث كان بها عبادة الأصنام في تلك الأيام، فسألهم عن هذه الأصنام فقالوا له: هي آلهتنا، نستمطر بها فتمطرنا، ونستنصر بها فتنصرنا، فصدَّقهم، وطلب منهم صنماً فأعطوه هبلاً، الصنم الكبير بمكة، فأخذه وجعله في جوف الكعبة، ولأجل مكانته التي كانت له عند الناس، تقبل الناس فعله ذاك، وعبدوا الأصنام مع الله جل وعلا، وكان أول ذلك عبادتهم لهُبل الذي أحضره من الشام عمرو بن لُحي؛ لذا استحق الوعيد الوارد في حقه في الحديث الصحيح، فعن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أول من سيَّب السوائب، وعبد الأصنام أبو خزاعة**

عمرو بن عامر، وإني رأيته يجرُّ أمعاءَه في النَّار»[1]، وكيف لا وهو الذي أدخل الشرك إلى مكة حتى كثرت عبادة الأصنام فيها، ليس في مكة وحدها، بل في جزيرة العرب كلها.

وهنا نأخذ عبرة وفائدة: أنه لا ينبغي للإنسان أن يُبالِغ في تعظيم إنسان من البشر حتى يخرج به عن طاعة الله ﷻ، فهؤلاء القوم لما بالغوا في محبتهم لعمرو بن لحي، فإذا بهم يقبلون منه الشرك والكفر، فينبغي على الإنسان أن يضع كلَّ إنسان في مكانه، الأنبياء في مكانهم، والمرسلين في مكانهم، والعالِمُ في مكانه، وطالب العلم في مكانه، والعامي في مكانه، ولا يجعل أحداً من الناس في غير مكانه الذي جعله الله تبارك وتعالى.

وفيه من العبرة أيضاً: أن عاقبة الظلم وخيمة، فجُرْهُم لما طغوا وأفسدوا في مكة كان عاقبتهم أن أجلاهم الله تبارك وتعالى منها، وسلط عليهم من لا يرحمهم، فكذلك تكون عاقبة الظلم دائماً وأبداً.

ثم إن الله سبحانه وتعالى هيأهم لظهور النبي ﷺ فظهروا بعد اختفاء، وعزوا بعد ذل، فهذا تمهيدٌ من ربِّ العالمين لظهور رسالة النبي ﷺ، فلما ظهر

---

(١) رواه أحمد (٤٢٥٨) وقال محققو المسند (٧/ ٢٩٢): « صحيح لغيره»، وأورد الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٥٤٩) روايةً أخرى للحديث – عزاها لابن إسحاق – بلفظ : «**رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه – يعني أمعاءه – في النار، لأنه كان أول من غيَّر دين إسماعيل فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي**» .

محمد ﷺ كانت قريش هي سيدة العرب وسيدة مكة بلا منازع، وظهر من أوسطهم نسباً ومكانةً محمد ﷺ، ليكون ذلك أدعى لقبول رسالته ودعوته عليه الصلاة والسلام.

وكثرت الأصنام في مكة وفي جزيرة العرب وكان من أشهر أصنامهم: العزَّى: وكانت بنخلة بعد مكة مابين مكة والطائف، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان، واللات: وكانت بالطائف، وأصلها رجل صالح كان يلت السويق للحجاج، فلما مات عبدوه في قبره، وكان حجابها وسدنتها ثقيف من أهل الطائف، ومناة: وكانت على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد، وكان الأوس والخزرج يعبدونها ويبالغون في تعظيمها، وقد أرسل النبي ﷺ أصحابه ليهدموها بعد فتح مكة، وبعد تمكن دعوة الإسلام من قلوب الناس، وهذه الأصنام الثلاثة هي أكبرها، وقد ذكرها الله في كتابه الكريم بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[1]، وكثرت الأصنام في مكة حتى بلغت ثلاثمائة وستين صنماً، وقد هدمها النبي ﷺ يوم فتح مكة، وكانت عبادتهم للأصنام يتمسحون بها عند السفر، وعند العودة من السفر، ويلجئون لها في طلب المشورة والرأي، ويحجون إليها، ويطوفون بها، ويتقربون إليها بأنواع القربات.

---

(١) النجم: ١٩ - ٢٠.

ومن المضحك المبكي أن بعض هذه الأصنام كانوا يصنعونها من الطعام، ويعبدونها، فإذا جاعوا أكلوها!!، فانظر إلى أي حدٍ من الجهالة والسفاهة بلغت الإنسانية في ذلك الوقت، حتى تعبد شجرةً أو صخرةً أو قبراً أو حجراً أو طعاماً!!، وهذا - وللأسف الشديد - نراه اليوم في بعض بلاد المسلمين الذين يعظمون قبور الموتى من الأولياء والصالحين، ويطوفون بها، وينذرون لها، ويذبحون لها من دون الله عياذاً بالله تعالى؛ وهذا شرك بالله جل وعلا.

ولم تكن عبادة الأصنام هي الشر الوحيد الذي جلبه عمرو بن لحي لقريش والعرب، فكما ورد في الحديث السابق أنه كان أيضاً: أول بحر البحيرة، وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي، وقد قال الله جل وعلا: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾[1].

والبحيرة: تشق أذنها فلا تُركب ولا يُشرب لبنها تقرباً إلى الآلهة، قال ابن عباس: البحيرة هي الناقة التي كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها، أي: شقوها وتركوا الحمل عليها وركوبها، ولم يجزُّوا وبرَها ولم يمنعوها الماء

(١) المائدة: ١٠٣.

والكلأ، ثم نظروا إلى خامس ولدها فإن كان ذكراً نحروه وأكله الرجال والنساء، وإن كان أنثى بحروا أذنها، أي: شقوها وتركوها وحرم على النساء لبنها ومنافعها، وكانت منافعها خاصة للرجال، فإذا ماتت حلَّت للرجال والنساء[1].

والسائبة: البعير الذي يُسيَّب، وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أو غاب له قريب نذر فقال: إن شفاني الله تعالى أو شفي مريضي أو عاد غائبي، فناقتي هذه سائبة، ثم يُسيِّبها، فلا تُحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبها أحد، فكانت بمنزلة البحيرة، وأما الوصيلة: فمن الغنم كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن فإذا كان السابع ذكراً ذبحوه، فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركوها في الغنم، وإن كان ذكراً وأنثى استحيوا الذكر من أجل الأنثى، وقالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوه، وكان لبن الأنثى حراماً على النساء، فإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء جميعاً، وأما الحام: فهو الفحل إذا رُكِبَ ولدُ ولدِهِ، ويُقال: إذا نتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: حُمِيَ ظهرُهُ فلا يُركب ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من كلأ ولا ماء، فإذا مات أكله الرجال والنساء[2].

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ١٠٧) ط ٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ١٠٧، ١٠٨).

انظر إلى هذه السفاهة وإلى هذه السذاجة، وقد ذكر الله ﷻ ذلك في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

ومن بدع قريش - وهم الحُمْسُ - ومن دان بدينها : أنهم كانوا لا يقفون بعرفات مع الحجيج وإنما يقفون بمزدلفة، ويقولون: نحن أهل الله، وسُكَّان حرمه، فلا نُخَلِّفُ الحرَمَ ولا نخرج منه، ويتعظَّمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحُمس من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمعٍ مع سائر الناس[2].

ومن بدعهم في الجاهلية أيضاً: أن العرب - ما عدا قريشاً - كانوا لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يزعمون أنهم لا يطوفون في ثيابٍ عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحُمْسُ - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أَحْمَسِيٌّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوبٌ جديدٌ طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملّكه أحدٌ، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أَحْمَسِيٌّ ثوباً، طاف عُرْيَاناً،

---

(١) الأنعام: ١٣٩.

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (١/ ٢٣٠).

وربما كانت امرأة فتطوف عُرْيَانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليـــوم يبـــدو بعضُـــهُ أو كلـــه ومـــا بـــدا منـــه فـــلا أحلّـــهُ[1]

وهذا من أشدِّ ما كان لديهم من الفسق والجهل والضلال، وقد أبطل الله تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾[3]، وخاطبهم سبحانه بصفة الآدمية، لم يخاطبهم بالإسلام ولا بالإيمان، لأن الستر من فطرة الإنسان وفطرة بني آدم، والعري منافٍ لتلك الفطرة.

وها نحن نرى في هذا الزمان بعض الناس يميلون إلى التعري والتكشف وكشف العورات، رجالاً ونساءاً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فهذا بلاء عظيم، وهو من أمراض الجاهلية، ومن عادات الجاهلية التي ينبغي للمسلم أن يتركها.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٠٢) بتحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط ٢، دار طيبة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

(٢) الأعراف: ٣١ .

(٣) الأعراف: ٢٦.

فالله ﷻ جمَّلنا بالستر، ولباس التقوى، ولباس الحياء والعفة خير لنا، وإننا لنعجب من تلك الألبسة التي بدأت تظهر وتظهر، وترتفع قليلاً قليلاً لتبدي عورات الناس، في الأسواق والطرقات وفي القنوات الفضائية الفاسدة الفاجرة؛ حدِّث ولا حرج عن ذلك التعري الذي هو بضاعة إبليس لعنه الله، فهو أوَّل من سعى لتعرِّي آدم وحواء في الجنة كما ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم.

ثم بدعة الاستقسام بالأزلام: وهي عبارة عن ثلاثة أقداح، قدح مكتوب عليه: افعل، والثاني: لا تفعل، والثالث: لاشيء عليه، فكان الواحد منهم إذا أراد السفر أو الزواج أو أي شيء يأتي على خادم هذا الصنم فيعطيه مالاً ثم يرمي له بتلك الأسهم، وما خرج له فعله، فإن خرج الفارغ أعاد[1]، وقد أبطل الله تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[2].

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٥٨) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط ٢، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

(٢) المائدة: ٣.

كما انتشر في الجاهلية الأولى: السحر والدجل، وتصديق الكهان والعرافين والسحرة والدجالين والمنجمين، والعجب أننا ونحن في عصر التقدم والعلم، لا زلنا نجد رواجاً لسوق السحرة والدجالين والمشعوذين لدى قطاعات غير قليلة من البشر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رغم تحذير النبي ﷺ لنا ولجميع المسلمين من ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتى كاهنا، أو عرافا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد**»[1].

ومن بدعهم أيضاً: النسيء، ومعناه: تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم - عليه السلام -، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسؤوا، أي: أخروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيحرِّمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع، هكذا شهراً بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة

(١) رواه أحمد في «المسند» (٩٥٣٦) وقال محققو «المسند» (١٥/ ٣٣١): حديث حسن.

كلها[1]، وحرم الإسلام ذلك عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2].

وأما حياة المشركين الاجتماعية قبل الإسلام فحدِّث عنها ولا حرج، فمن عاداتهم القمار والمعروف بالميسر، وشرب الخمر، ونكاح الاستبضاع، وهذا من الخسة والدناءة بمكان، والمراد بنكاح الاستبضاع: أن يأتي الرجل الوضيع الذي ليس له شأن في الناس، فينتظر حتى تطهر زوجته من حيضها ثم يرسل بها إلى أحد أشراف القوم ليجامعها - تستبضع منه!! - حتى تأتي له بالذرية الشريفة!!، قبحه الله من شرف!!، إنه والله الذل والعار والشنار، وهو مما تأباه أية فطرة سليمة، فضلاً عن تحريم الإسلام له.

ومن عاداتهم الجاهلية: تبرج النساء الذي نهى عنه الإسلام وحرمه؛ قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[3]، وها نحن نرى تبرج الجاهلية الأولى قد عاد، بل والله نرى من العري وتفسخ النساء في هذا العصر

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٤/ ٤٥).

(٢) التوبة: ٣٧ .

(٣) الأحزاب: ٣٣.

ما يفوق تبرج الجاهلية الأولى أضعافاً مضاعفة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن مصائبهم العظيمة: وأد البنات خشية العار، وقد حرَّم الإسلام ذلك، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[1]، كما حرم الإسلام قتل الأولاد عموماً - ذكوراً كانوا أو إناثاً - خشية الفقر، قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[2]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾[3].

ومن عاداتهم الجاهلية المقيتة: العصبية القبلية الشديدة، فكان الواحد إذا طلب منه أحد أفراد قبيلته وعشيرته نصرةً، نصره مباشرة حتى ولو كان ظالماً، فلا يمكن أن يقف ضده أبداً، ولقد جاء الإسلام فضبط هذه النصرة، وصحح مسارها، قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» فقال

---

(١) التكوير: ٨ - ٩ .

(٢) الأنعام: ١٥١ .

(٣) الإسراء: ٣١.

رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه، أو تمنعه، من الظلم فإن ذلك نصره**»[1].

هذا فضلاً عن شن الغارات والحروب لأتفه الأسباب؛ كحرب داحس والغبراء والبسوس وبعاث والفجار وغيرها، والسلب والنهب الذي كان يجري في الجاهلية بين العرب، واسترقاق الأحرار، وغير ذلك من عادات قبيحة كانت تسيطر عليهم قبل الإسلام.

وكانت هناك عادات حسنة، وأخلاق طيبة، مثل الصدق، وإكرام الضيف، والوفاء بالعهد، واحترام الجوار، والصبر والتحمل، والشجاعة والنجدة وغيرها من العادات الحسنة، التي جاء الإسلام بإقراراها وتثبيتها، كما حارب الإسلام تلك العادات السيئة التي كانت موجودة عند العرب في الجاهلية.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) رواه البخاري (٦٩٥٢) عن أنس رضي الله عنه.

حادثة الفيل

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، فلا زال الحديث متواصلاً عن الأحداث التي وقعت قبل مقدم النبي ﷺ - والتي جعلها الله ﷻ توطئة وتمهيداً لظهور النبي محمد ﷺ -؛ ولأن هذه الدعوة هي الدعوة الخاتمة، فمهَّد الله لها تبارك وتعالى السبيل، وهيأ لها الأرض المناسبة حتى تُبَلَّغ تلك الرسالة على أكمل وجه يحبه الله تبارك وتعالى ويرضاه.

ومن تلك الأحداث التي سبقت مجيء النبي ﷺ حادثة الفيل، وهي من أقرب الأحداث إلى مقدم النبي ﷺ، حيث وقعت في عام الفيل، في شهر المحرم، قبل ولادة النبي ﷺ بخمسٍ وخمسين يوماً، ولكن قبل أن نذكرها نذكر شيئاً من التاريخ الذي يمهِّد لها، فما الذي جاء بالأحباش إلى اليمن؟ وما الذي جاء بهم بعد ذلك إلى مكة؟

في عام ثلاثمائة وأربعون (٣٤٠ من الميلاد) دخل الحبشة لأول مرةٍ إلى اليمن بمعونة الرومان، وبدأت المسيحية في ذلك التاريخ، وفي عام أربعمائة وخمسون (٤٥٠ من الميلاد) وقع سيل العرم، وانهدم سد مأرب، وتشتت القبائل.

ومن تلك القبائل التي خرجت من اليمن: قبيلة الأوس، وقبيلة الخزرج، وسكنتا يثرب[1]، ليكونا بعد ذلك أنصار النبي ﷺ.

وفي عام خمسمائة وثلاثة وعشرون (٥٢٣ من الميلاد) قاد ذو نواس اليهودي المشرك حملةً منكرةً على المسيحيين من أهل نجران، حاول بها صرفهم عن المسيحية قسراً وقهراً وتحويلهم إلى اليهودية، ولما أبوا حفر لهم الأخاديد، وأضرم لهم النيران، وبين الله تبارك وتعالى لنا ذلك في سورة البروج، في قصة أصحاب الأخدود، وكان عددهم قريباً من عشرين ألفاً[2]، وكان قتلهم في تلك الأخاديد سبباً لعودة النصارى مرةً أخرى مع الأحباش، بقيادة أرياط عام خمسمائة واثنان وخمسون (٥٥٢ من الميلاد)، ومعه أبرهة، فقد جاؤوا بجيشٍ كبير - فيه سبعون ألفاً من الحبشة - ودخلوا اليمن، وهرب ذو نواس، وغرق في البحر[3]، وذلك عقوبة الله تبارك وتعالى لكل طاغيةٍ جبار، يطغى ويتجبر ويؤذي عباد الله تبارك وتعالى.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية»، لابن كثير (١/ ١٣) تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٧٦م.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥، ٣٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٧)، و«الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام» لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م (١/ ١١٩).

وهذه سُنَّة متكرِّرة في كل زمانٍ ومكان، فعلى المسلمين إذا رأوا الطواغيت والجبَّارين وهم يفتكون بالناس، عليهم ألا ييأسوا، وأن ينتظروا هلاكهم ودمارهم، كما حصل لأولئك الطواغيت على مرِّ الزمان، وكما يحصل في زماننا، فها نحن نرى الكثير من الطواغيت يقبعون في المستشفيات بين الحياة والموت، ويصابون بأبشع الأمراض، كما هو الحال مع ذلك الطاغية شارون؛ الذي جعله الله تبارك وتعالى عبرة لكل معتبر.

أقام أرياط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي- وكان في جنده – حتى قتل أبرهة أرياط وتولى قيادة اليمن[1].

ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون لموسم الحج، فسأل: ماذا يصنع هؤلاء؟ فقيل له: إنهم يحجون إلى بيت الله الحرام، فقال وما هذا البيت؟ فقالوا: من حجارة، قال: وما لباسه وكسوته؟ قالوا: وصائل يأتي بها الناس من هنا وهناك؟، فأقسم أن يبني بيتاً خيراً منه!!، هكذا زعم، وهو كاذبٌ أشر، فلا بيت خير من بيت الله تعالى، فبنى القُلَّيس[2] – وهي كنيسة ضخمة بصنعاء، مزخرفةً ومُزَيَّنة، بناها من الرخام الأبيض والأسود والأحمر

(١) قتله غلام أبرهة، ويقال له: عَتَوْدَة . وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤١، ٤٢).

(٢) سميت بذلك لارتفاع بنائها وعلوها .«الروض الأنف» (١/ ١٣٦) .

والأصفر، وحلَّاها بالذهب والفضة والجواهر، وكان يلطخ جدرانها بالمسك ظناً منه أنه سيفلح في توجيه الناس إليها، وكان من شدة ظلمه وطغيانه أنه استعمل جميع الناس في بنائها دون أن يدفع لهم شيئاً، بل إن من تأخر منهم عن الحضور قبل طلوع الشمس كان يأمر بقطع يده - وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يبن مثلها لملكٍ قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرف وجوه العرب إليها، وأمر الناس - بالفعل- أن يتوجهوا إليها.

وهكذا حال الطواغيت والجبارين، نفاقٌ وتدليسٌ وكذبٌ وتملّقٌ، والعياذ بالله تبارك وتعالى.

وتحدَّث العرب بهذا الكلام، فقيل: إنَّ رجلاً من كنانة جاء إلى القُلَّيس فأحدث فيها، فلما علم أبرهة بذلك أقسم أن يأتي بيت الله الحرام فيهدمه[1] - والعياذ بالله تبارك وتعالى -، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العرب، فأنكروا ذلك، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة، بيت الله الحرام، ثم سار من اليمن إلى مكة ولم يعترض طريقه إلا بعض القبائل، ولكنه هزمهم، وبعض القبائل صانعوه وخضعوا واستسلموا له، بل وأرسلوا معه من يدله على

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٣، ٤٥).

بيت الله الحرام، ومنهم: أبي رِغال الذي خرج مع أبرهة ليدله على مكان بيت الله تبارك وتعالى، فمات بِالْمُغَمَّسِ[1]، وأصبح قبره بعد ذلك مكاناً يرجمه العرب كلما مروا به في ذلكم المكان، حيث يذكرون خيانته وغدره وكذبه، ومن ثم يرجمون قبره[2].

فلما نزل أبرهة بالْمُغَمَّس أرسل رجلاً من الحبشة إلى مكة، فساق الإبل لأهل مكة، وأهل تهامة، وبها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها، وهمّوا بقتاله، ولكنهم لما رأوا ذلك الجيش الكبير، وأنه لا طاقة لهم به استسلموا لهذا الأمر[3].

ثم أرسل أبرهة يسأل عن سيد أهل هذه البلد وشريفهم، فقيل له: إنه عبد المطلب بن هاشم، فأرسل له برسولٍ حتى يدعوه إليه، فجاء عبد المطلب إلى أبرهة، فسأله حاجته، وقال له: ما حاجتك؟ فقال له: أن ترد عليَّ إبلي - المائتي بعير -، وعند ذلك تعجب أبرهة، وقال: ظننت أنك ستتكلم معي في بيت آبائك وأجدادك، وفي دينك ودين آبائك وأجدادك، وأنت تعلم أني جئت لأهدم البيت، فقال قولته المشهورة: أنا رب الإبل، وللبيت ربٌ يحميه[4].

---

(١) المغمَّس: مَوضِع بطرِيق الطَّائف، فيه قبر أَبي رِغَال، دَلِيل أَبْرهَة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٦- ٤٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٩، ٥٠).

نعم (للبيت ربٌ يحميه) قالها عبد المطلب وكله ثقة في حماية الله لبيته الحرام، رغم أنه لم يكن مسلماً، لكنها الثقة بالله تبارك وتعالى؛ فأين المسلمون اليوم من ثقتهم بربهم، أين المسلمون الذين نزل فيهم كتاب الله تبارك وتعالى، وجاء إليهم رسول الله ﷺ، وجاءتهم الدلائل والبينات والحجج، أين هم من هذا اليقين بنصر الله وحمايته، وأين هم من هذه الثقة؟!.

إنَّ المسلمين إذا حلَّ بهم بلاء، أو نزل بهم كرب أو مصيبة أو حادثة؛ وجدناهم - في أكثرهم - تزعزع الإيمان في قلوبهم، ووهنت عزائمهم، وخارت قواهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ مع أن الله تبارك وتعالى يأتي بالفرج مع كل كرب، ويأتي بالعافية مع كل بلاء، ويأتي بالنصر والمعونة عندما يشتد الضعف ويُظَنُّ الهلاك.

وعندما قال عبد المطلب لأبرهة: أنا رب الإبل[1]، وإنَّ للبيت ربٌ يحميه، قال أبرهة: ما كان ليمنعني أحد؟ فقال له: أنت وذاك، ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرّز في شعف الجبال[2] والشِّعاب تخوُّفاً عليهم من الجيش، ثم قام عبد المطلب، فأخذ

(١) ربُّ الإبل: أي مربيها والقائم على رعايتها.

(٢) شعف الجبال: رؤوسها . انظر: «لسان العرب» (٩/ ١٧٧) .

بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده[1].

ولما أصبح الصباح تجهَّز جيش أبرهة، وأخذ يتحرَّك من المغمّس، فما أن وصلوا إلى وادي محسّر - قبل منى -، حتى برك فيل أبرهة الأكبر – ويقال له: محمود -، والتصق بالأرض، ويقال: إنه لما وجَّهوا الفيل إلى مكة، أقبل نُفيل بن حبيب الخثعمي حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه. فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل؛ وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوه بالحديد والخشب والعصي وطعنوه في بطنه ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا، ويسألون عن نفيل بن

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٠، ٥١).

حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أيــن المفــرُّ والإلــه الطالــبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالب[1]

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتها قيحاً ودما، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه [2].

وقد قصَّ الله تبارك وتعالى علينا هذه القصة، وخلدها القرآن لنأخذ منها العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[3].

وفيما حصل لأبرهة وجنوده أعظم عبرة لأهل ذلك الزمان، من اليهود والنصارى الذين كانوا يحيطون بجزيرة العرب، وتوطئة وتمهيد لظهور نبينا

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٢، ٥٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٤).

(٣) الفيل: ١ – ٥.

محمدٍ ﷺ؛ فمن هذا المكان الطاهر، ومن جوار بيت الله الحرام، الذي منعه الله تبارك وتعالى وحماه وحرسه، من هنا سيظهر نبي آخر الزمان.

لقد أرسل الله تبارك وتعالى هذه الطير الأبابيل لتهلك هؤلاء الطغاة، وتأمَّل؛ أرسل طيراً فقط، لم يرسل لهم شيئاً ضخماً ولا مُفزِعاً؛ هم جاءوا بالفيل الضخم ليفزعوا الناس، بينما أرسل الله تعالى لهم طيراً أبابيل من فوقهم، حتى يعلموا ويوقنوا أن الذي هزمهم هو الله تبارك وتعالى، والطير الأبابيل مجرَّد سبب، وهي جند من جنود الله تعالى.

لقد كان هلاك أبرهة وجنده وانهزامهم، إيذاناً بدعوة الإسلام، وإيذاناً برسالة محمدٍ ﷺ، ومع هذه الحجة الدامغة وهذه الآية البالغة والمعجزة التي جعلها الله تبارك وتعالى لرسوله؛ - مع ذلك - كفر المشركون وعاندوا رسول الله ﷺ، وحاربوه حتى أيَّده الله تبارك وتعالى ونصره عليهم، صلوات ربي وسلامه عليه.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.





أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، كنا قد تحدثنا في جمعةٍ سابقة عن إبراهيم - عليه السلام -، وزوجه هاجر - عليها السلام -، وعن إسماعيل- عليه السلام -، وعن بداية أمر النبي ﷺ بدعوة نبي الله إبراهيم - عليه السلام -، وكيف كان بناء البيت الحرام وعمران مكة من هذه الأسرة المباركة؛ إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام، وأن الله بعث إسماعيل نبياً في قومه في مكة، ومكث مائة وسبعة وثلاثون عاماً (١٣٧ عاماً) وهو يدعو إلى الله تعالى.

وبعد وفاة إسماعيل - عليه السلام - نقض الجرهميون العهد – وكانوا قد استوطنوا مكة مع هاجر، ووافقوا أن يكونوا تحت إمرة هاجر وإسماعيل، لكنهم نقضوا العهد بعد وفاة إسماعيل عليه السلام - وأخذوا أمر مكة بيدهم، فلذلك لم يشتهر من أبناء إسماعيل - عليه السلام - أحد، حتى جاء عدنان من ذرية إسماعيل فقاوم الجراهمة وأخرجهم من مكة، ولما خرجوا من مكة دفنوا بئر زمزم وجعلوا فيه الذهب وكل الأشياء التي كانت تهدى للكعبة حتى لا يعرف بنو إسماعيل - عليه السلام – مكانها، غيظاً منهم بعد

أن نشروا الظلم في مكة، وبعد أن نشروا الفساد في مكة، فأعاد الله تبارك وتعالى الأمر مرةً أخرى إلى أبناء إسماعيل - عليه السلام -.

وإذا أردنا أن نتكلم عن نسب النبي ﷺ إلى عدنان؛ فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خزيمة بن مدْركة بن إلياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعد بن عَدْنان[1]، وعدنان من ولد إسماعيل- عليه السلام -.

قال الإمام الماوردي: «ليس في آبائه خامل مسترذل ولا مغمور مستذل، كلهم سادة قادة، وهم أخص الناس بالمناكح الطاهرة»[2].

عن واثلة بن الأسْقَعِ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كِنَانَة من وَلَدِ إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قُريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشم**»[3].

كما جاء في بعض الروايات «**فأنا خيار من خيار**»[4].

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١ / ٣) ط. مؤسسة علوم القرآن.

(٢) «أعلام النبوة» للماوردي (ص ٢٠٢) ط ١، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٠٩هـ.

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ١٩٤).

وعن المطلب بن أبي وداعة قال: جاء العباس إلى رسول الله ﷺ فكأنه سمع شيئاً، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: «**من أنا؟**»، فقالوا: أنت رسول الله عليك السلام، قال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نسباً**»[1].

فهذه شهادة من رسول الله ﷺ لهذا النسل المبارك، فأما مَعد وهو ولد عدنان، فهذا كان مناصراً لأبيه حتى أخرج الجراهمة، لم يحارب أحداً إلا عاد منصوراً، ونزار كان أجمل أهل زمانه وأرجحهم عقلاً، ومضر كان جميلاً ولم يره أحد إلا أحبه، وإلياس كان في العرب مثل لقمان الحكيم، فمن أقواله: «من يزرع خيراً يحصد غبطةً، ومن يزرع شراً يحصد ندامةً»، وفهر كان كريماً، يبحث عن الفقراء والمساكين فيقضي حاجتهم ويواسيهم بماله، وهو الجد السادس لأبي عبيدة بن الجراح ﷺ، وكعب كان يجمع قومه يوم العروبة - يعني يوم الجمعة - فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، وينبئهم أنه من ولدهم، ويأمرهم باتباعه، وهو الجد الثامن لعمر بن الخطاب ﷺ، فعمر ﷺ يلتقي مع الرسول ﷺ في كعب، ومرة هو الجد السادس لسيدنا رسول الله ﷺ ولأبي

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٢) وقال: «حديث حسن».

بكر الصديق ﷺ فيجتمع النبي مع أبي بكر في سادس جد، في مرة، ويلتقي أيضاً نسب الإمام مالك بن أنس - إمام دار الهجرة - مع رسول الله ﷺ في مرة، وكلاب اسمه حكيم، وسمي بكلاب لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب، وهو الجد الثامن لآمنة أم النبي ﷺ، فهو ملتقى نسبي أبي النبي ﷺ بأمه، وقصي، ويقال له: مجمع؛ لأن الله جمع به القبائل من قريش في مكة بعد تفرقها، فإن القبائل بعد أن جمعها عدنان من ولد إسماعيل، عادت فتفرقت مرةً أخرى حتى جاءت عليهم قبائل أخرى، وسيطرت على مكة، وخرج أبناء إسماعيل خارج مكة ومنهم قصي، ولذلك سمي قصي لأنه أقصي عن مكة، وأبعد عن مكة بعد وفاة أبيه، ثم عاد قصي بعد ذلك وكان له شأن كبير، فهو أول من أوقد ناراً بمزدلفة حتى يراها الحجاج العائدون من عرفة، وهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم - عليه السلام- ، وكان لقصي في الجاهلية حجابة البيت، يعني سدانة الكعبة وسقاية الحاج وإطعامه بالرفادة، وهو أول من نظَّم هذه الأمور؛ فقد فرض على أهل مكة فرضاً، وأوجب عليهم مبلغاً يدفعونه كل عام، يشتري به قصي الطعام لحجاج بيت الله تبارك وتعالى، فكان يشتري لهم ويكرمهم، وسمي هذا بالرفادة، وجعل لقريش بيت الندوة، وهو الذي تقام فيه الشورى، فكان لا يتم أمر في مكة إلا في بيت الندوة، وهو في الجهة الشمالية من الكعبة، ولما حضرت الوفاة قصياً

نهى بنيه عن شرب الخمر، وله محاسن كثيرة، وعاش ثمانين عاماً، ثم عبد مناف، وهو من صفوة أبنائه، اسمه المغيرة وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة كرمه وجوده، وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان ﷺ، والجد التاسع للإمام الشافعي رحمه الله تبارك وتعالى، ثم هاشم، واسمه عمرو، وقد وقعت مجاعةٌ شديدة في مكة فذهب إلى بلاد الشام، وجلب الطعام والشراب وذبح الجزور وهشم الطعام، فسمي بهاشم لهذا، فأنقذ الناس من مجاعةٍ كبيرة لكرمه وجوده، ولم تزل مائدته منصوبةً في السراء والضراء، وكان موسراً يؤدِّي الحق ويؤمِّن الخائف، وهو أول من سن رحلة الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام، ثم عبد المطلب جد النبي ﷺ وأمه سلمى بنت زيد النجارية من المدينة، واسمه شيبة الحمد، لأنه ولد وله شيبة في رأسه، وكان مجاب الدعوة، وكان يرفع من مائدته ما زاد من الطعام فيجعله على الجبال فيأكل منه الطير والوحوش، وكان مفزع قريش في النوائب، وشريفهم وسيدهم كمالاً وفعالاً، وهو أول من تحنث في غار حراء، عاش مائة وعشرين سنة، وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وهو الذي كشف عن ماء زمزم بعد السنين الطويلة التي غطيت فيها ماء زمزم .

تذكر كتب السيرة[1] أن عبد المطلب رأى رؤيا وهو نائم في حجر إسماعيل - عليه السلام -، رأى أن آتياً أتاه وأمره بحفر زمزم ثلاثة أيام، وفي الرابع وصف له مكانها بالتحديد، فلما استيقظ في ذلك اليوم الرابع حفرها ولم يلبث يسيراً حتى اختلط الماء بالتراب فكبر الله تبارك وتعالى، وجاءته قريش ينازعونه ماء زمزم، ويقولون: إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً، فقال لهم: إن هذا لأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيته من بينكم، قالوا: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أخاصمكم إليه، فقالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام.

فركب عبد المطلب في نفر من بني أبيه، وركب من كل بطن من أفناء قريش نفر، وكانت الأرض إذ ذاك مفاوز فيما بين الشام والحجاز، حتى إذا كانوا بمفازة من تلك البلاد، فني ماء عبد المطلب وأصحابه حتى أيقنوا الهلكة، فاستسقوا القوم، قالوا ما نستطيع أن نسقيكم، وإنا لنخاف مثل الذي أصابكم، فقال عبد المطلب لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته بما بقي من قوته، فكلما مات رجل منكم، دفعه أصحابه في حفرته، حتى يكون آخركم يدفعه صاحبه، فضيعة رجل أهون

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٤٣- ١٤٥).

من ضيعة جميعكم، ففعلوا، ثم قال: والله إن إلقاءنا بأيدينا للموت، لا نضرب في الأرض ونبتغي عجز. فقال لأصحابه: ارتحلوا، فارتحلوا، وارتحل، فلما جلس على ناقته، وانبعثت به، انفجرت عين من تحت خفها بماء عذب، فأناخ وأناخ أصحابه، فشربوا، واستقوا وسقوا، ثم دعوا أصحابهم: هلموا إلى الماء، فقد سقانا الله عز وجل، فجاؤوا فاستقوا وسقوا، ثم قالوا: يا عبد المطلب، قد والله قضي لك، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة، لهو الذي سقاك زمزم، انطلق، فهي لك، فما نحن بمخاصميك[1].

ثم إن عبد المطلب لما قال لولده الحارث: ذد عني حتى أحفر، فو الله لأمضين لما أمرت به. و«ذُد عني» أي: امنع عني حتى أحفر، وعلم أنه لا قدرة له على ذلك، فعندها نذر إن رزق عشرة من الولد الذكور يمنعونه ممن يتعالى عليه، ليذبحن أحدهم عند الكعبة، فلما رزقه الله الأولاد وصاروا عشرة (الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله -والد النبي ﷺ -)، فلما بلغوا عشرة من الولد وأراد أن يفي بنذره، وأخبر أولاده بذلك، فاستسلموا لذلك، وكتب اسم كل واحد منهم على قدح، وأعطى القداح لسادن هُبل والقائم بخدمته، وضرب تلك القداح، فخرجت على عبد الله – والد النبي ﷺ – وكان أصغر

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ٢٣- ٢٥).

ولده، وأحبهم إليه، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به على إساف ونائلة وألقاه على الأرض، ووضع رجله على عنقه، فجذب العباس عبد الله من تحت رجل أبيه حتى أثر في وجهه شجة لم تزل في وجه عبد الله إلى أن مات، كذا قيل، وفي رواية: أن قريشاً أعظمت ذلك واستنكرته، وقامت سادة قريش من أنديتها إليه ومنعوه من ذلك، وقالوا له: والله لا نفعل حتى تستفتي فيه فلانة الكاهنة، أي لعلك تعذر فيه إلى ربك؛ لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، ويكون ذلك سُنَّةً، وتلك الكاهنة قيل: اسمها قطبة، وقيل: سجاح، وكانت بخيبر، فأتها فاسألها فإن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته، فأتاها مع بعض قومه وفيهم جماعة من أخوال عبد الله بن مخزوم، فسألها وقص عليها القصة فقالت: ارجعوا عني اليوم حتى يأتي تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها ثم غدوا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ فقالوا عشرة من الإبل، فقالت: تخرج عشرة من الإبل وتقدح، وكلما وقعت عليه يزاد الإبل حتى تخرج القداح عليها، فضرب على عشرة فخرجت عليه، فما زال يزيد عشرة عشرة حتى بلغت مائة، فخرجت القداح عليها، فقالت قريش ومن حضره قد انتهى رضا ربك، فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات: أي ففعل ذلك وذبح الإبل عند الكعبة لا يُصدّ عنها أحد، من آدمي

ووحش وطير. قال الزهري: فكان عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل: أي بعد أن كانت عشرة كما تقدم[1].

ثم بعد ذلك لما نجَّا الله عبد الله، زوَّجه أبوه عبد المطلب من آمنة بنت وهب بن مناف بن زهرة بن كلاب، وتلتقي مع الرسول ﷺ في كلاب، وهكذا نرى هذا النسب الطاهر، نسب رسول الله ﷺ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله اصطفى كِنَانَة من وَلَدِ إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قُريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشم**»[2]، فهو ﷺ خيارٌ من خيارٍ من خيار .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «السيرة الحلبية» لعلي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي (١/ ٥٤، ٥٥) ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٧هـ.

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٦).

مولد الرسول ﷺ

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نواصل حديثنا عن سيرة النبي ﷺ، وكنَّا توقفنا عند حادثة الفيل، وبينَّا ما فيها من العبر، وأن حادثة الفيل في ذلك العام كانت تمهيداً وتوطئةً لظهور النبي ﷺ، بعد أن قمع الله تبارك وتعالى الجبَّارين والطغاة الذين أرادوا هدم بيته الحرام، فكان الوقت مهيأً لظهور النبي الخاتم محمد ﷺ .

ولا بد لنا في مواصلتنا لسيرته عليه الصلاة والسلام أن نتحدث عن مولده صلوات ربي وسلامه عليه، وكنا قد تحدثنا من قبل عن أبيه عبد الله وذكرنا أنه الذبيح، حيث أن أباه عبد المطلب، جدَّ النبي ﷺ لما رأى الرؤيا بمكان بئر زمزم التي اندثرت سنين وسنين ونازعته قريش فيها أوَّل الأمر، نذر لله ﷻ لئن وُلِدَ له عشرةُ نفرٍ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة، ولما أكرمه الله بعشرة أبناء كما أراد وصاروا رجالاً قادرين على منعه والدفاع عنه، جمعهم وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء بذلك فأطاعوه، وضرب عليهم القِدَاح عند الكعبة، فخرج القِدْحُ على عبد الله، والد النبي ﷺ، فأراد عبد المطلب ذبحه إلا أن الله نجاه تبارك وتعالى، وحصل

فداؤه بذبح مائة من الإبل فداءً لعبد الله من الذبح[1]، ثم زوجه أبوه عبد المطلب بآمنة بنت وهب بن عبد مناف، الشريفة العفيفة، وكانت يومئذ أفضل امرأةٍ في قريش نسباً وموضعاً.

وكانت هناك آيات وإشارات في حمل آمنة بنت وهب للنبي محمد ﷺ ذكرها العلماء ونصوا عليها:

فمنها: أنه عليه الصلاة والسلام ولد من نكاحٍ شرعي وليس من سفاحٍ جاهلي، رغم أن الجاهلية كانت تموج بأنواعٍ من المحرَّمات في الأنكحة، ولكنَّ الله ﷻ حمى نبيه ﷺ من ذلك كله.

ومنها: أن آمنة لم تجد أثناء حملها به ﷺ ما تجده الحوامل من الضعف والوهن وغير ذلك.

ومنها: أن آمنة رأت لما حملت به ﷺ ووضعته نوراً خرج منها أضاء لها قصور الشام وقد رأت ذلك في الرؤيا، فعن العرباض بن سارية السلمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني عند الله في أم الكتاب لَخَاتَمُ النبيين، وإنَّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينته، وسأُنَبِّئُكُم بتأويل ذلك، دعوةُ أبي إبراهيم، وبِشارَةُ عيسى**

(١) انظر في تفصيل ذلك: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٥١- ١٥٥).

قَوْمَهُ، ورُؤيا أُمِّي التي رأَتْ أَنَّه خرج منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ الشام، وكذلك ترى أُمَّهاتُ النبيين صلوات الله عليهم»[1].

ومعنى: «**وإن آدم لمجندل في طينته**»: أي: قبل أن ينفخ الروح في آدم – عليه السلام –.

وفي الحديث الحسن عن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**»[2]. أي أن الله شرَّفه وكرَّمه بالنبوة منذ القديم من الزمان.

فكما أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ** ﴾[3]، فكذلك اصطفى الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ قبل خلق آدم، وكلَّفه بالنبوة.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٨) (١٧١٦٣)، والحاكم (٢/ ٦٠٠) وصححه، وقال محققو المسند: «صحيح لغيره».

(٢) رواه الترمذي (٣٦٠٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) الأعراف: ١٧٢.

وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[1] ففيها إشارة إلى أنه كُلِّف بالنبوة قبلهم، فلذلك قدمه الله في هذه الآية على هؤلاء الأنبياء .

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - : «وأما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته بأنها دار ملكه كما ذكر كعب أن في الكتب السابقة: محمد رسول الله؛ مولده بمكة، ومهاجره يثرب، وملكه بالشام، فمن مكة بدئت نبوة محمد ﷺ ، وإلى الشام ينتهي ملكه ولهذا أسري به ﷺ إلى الشام إلى بيت المقدس، كما هاجر إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قبله إلى الشام»[2].

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3] .

---

(١) الأحزاب: ٧ .

(٢) «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي (ص ٨٨) ط١، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ .

(٣) الإسراء: ١ .

وفي الحديث الحسن قال عليه الصلاة والسلام: «**إني رأيت كأن عمود الكتاب**» يعني: القرآن والوحي «**انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري فإذا هو نورٌ ساطعٌ عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام**»[1].

وفي الحديث الحسن أيضاً، قال عليه الصلاة والسلام: «**سيصير الأمر أن تكونوا جنوداً مجنَّدةً، جندٌ بالشام وجندٌ باليمن وجندٌ بالعراق**» فقال ابن حوالة ﷺ: خِرْ لي – أي: اخترْ لي – يا رسول الله، إن أدركت ذلك، فقال: «**عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم، واسقوا من غُدُرِكُم فإن الله توكَّل لي بالشام وأهله**»[2].

وعن زيد بن ثابت ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**طوبى للشام**» فقلنا: لِأيٍّ ذلك يا رسول الله؟. قال: «**لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها**»[3].

وفي رواية: «**إن الرحمن لباسط رحمته عليه**»[1].

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٥٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) رواه أحمد (٢٨/ ٢١٦) (١٧٠٠٥)، وأبو داود (٢٤٨٣)، وابن حبان في«صحيحه» (٧٣٠٦)، والحاكم (٤/ ٥٥٥) من حديث عبد الله بن حوالة ﷺ، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٣) رواه الترمذي (٣٩٥٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث يحيى بن أيوب».

ولا شك أن أبرز مافي الشام، وأل ما تتوجه له الأنظار بالشام هو بيت المقدس وأكناف بيت المقدس التي نرى فيها اليوم ما فيها من الظلم ومن الطغيان الذي يُصَبُّ على أولياء الله المؤمنين الذين ليس لهم ذنب إلا أنهم قالوا ربنا الله ؛ ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[٢].

قوةٌ عاتيةٌ تواجه أطفالاً صغاراً، وتواجه نساءً وشباباً، وشيوخاً كباراً، لا تستثني أحداً ، على أيِّ شيء يدل هذا؟ يدل على أن قوة الإيمان أقوى من قوة أهل الأرض جميعهم، نسأل الله تبارك وتعالى أن يفرِّج عن إخواننا في فلسطين وأن ينصرهم وأن يلطف بهم.

نحن ننظر إلى من يموت منهم بعين الحزن، والأولى بنا أن ننظر إلى أنفسنا بعين الحزن؛ لأنهم شهداء يصطفيهم الله تبارك وتعالى ويختارهم، ويرفع من درجاتهم في أعلى الجنان، فهم في خير، ونحن في شرٍّ؛ لأننا في دنيا غرَّارة فتنت الكثير من الناس، وألهتهم عن ذكر الله تبارك وتعالى وعن طاعة الله، وهي التي حذَّرنا منها النبي ﷺ، فقال: «**والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسَطَ الدنيا عليكم كما بُسِطَت على مَن كان قبلكم، فَتَنافسُوها كما**

---

(١) رواها الطبراني في«المعجم الكبير» (٤٩٣٥) (٥/ ١٥٨) .

(٢) البروج: ٨ .

تنافسوها، فتُهلِكَكُم كما أهلكتهم»[1].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يتغمد شهداءهم، وأن يتولى أيتامهم وأراملهم، وأن يُعَجِّل لهم بالفرج والنَّصر، وأن يتولَّاهم ويتولَّى كل المؤمنين في تلك الأرض، وأن يُعجِّل بالنصر الذي بشَّرنا به الحبيب ، من فمه الطاهر صلوات ربي وسلامه عليه.

قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهوديٌّ خلفي؛ فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**»[2].

قال بعض السلف: «ما بعث الله نبياً إلا من الشام فإن لم يبعثه منها هاجر إليها، وفي آخر الزمان يستقر العلم والإيمان بالشام، فيكون نور النبوة فيها أظهر منه في سائر بلاد الإسلام»[3]، وهذه عزة الإسلام، نراها هناك تعيد إلى المسلمين همتهم وقوتهم وثقتهم في دين الله تبارك وتعالى وفي إسلامهم .

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٢٩٢٦) في الجهاد والسير، ومسلم (٢٩٢٢) في الفتن وأشراط الساعة.

(٣) «لطائف المعارف» (ص ٨٨).

وبالشام ينزل عيسى – عليه السلام – في آخر الزمان وهو المبشر بمحمدٍ ﷺ ويحكم بدينه ولا يقبل من أحد غير دين محمد ﷺ، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويصلي خلف إمام المسلمين.

ومن آيات نبوته ﷺ أيضاً: أنه ولد مقطوع السُّرَّة مختوناً[1]، وارتج إيوان كسرى بفارس وسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته – كانت بعدد الملوك الطغاة الظلمة الذين سقطوا واحداً بعد الآخر حتى دخل الإسلام إلى تلك الديار –، وخمود نار فارس التي لم تخمد من ألف عام[2].

وتوفي أبوه عليه الصلاة والسلام وهو حمل في بطن أمه، ذاق مرارة اليتم عليه الصلاة والسلام، وكان أبوه قد سافر إلى بلاد الشام فلما عاد منها مرض ومات في المدينة النبوية عند أخواله من بني عدي بن النجار، ووصف الله نبيه ﷺ باليتم في كتابه العزيز بقوله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ** ﴾[3]، فالنبي ﷺ كان يتيماً ليس له أب يرعاه ولكن الله تبارك وتعالى تولى رعايته كما تولى رعاية موسى – عليه السلام – لما طلب من أمه أن تلقي

---

(١) انظر: «السيرة النبوية»، لابن كثير (١/ ٢٠٨– ٢١٠).

(٢) انظر: «دلائل النبوة»، للبيهقي (١/ ١٢٦) وما بعدها.

(٣) الضحى: ٦.

به في البحر، فقذفت به في البحر فتولاه الله تبارك وتعالى، وهكذا تولى الله سبحانه حبيبه محمداً ﷺ وهو يتيم.

والأمة الإسلامية اليوم فيها أكبر عدد من أيتام أهل الأرض، ولكن للأسف الشديد قليل في المسلمين الذي يلتفت إلى هؤلاء الأيتام، إن كفالتك لليتيم سواءً كان من أقاربك أو من غير أقاربك؛ يحصل لك بها عظيم الأجر ووافر الثواب، فكافل اليتيم موعود بصحبة النبي ﷺ ومجاورته في الجنة.

وولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة، في صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيعٍ الأول من عام الفيل، بعد خمسين يوماً من حادثة الفيل، الموافق الثاني والعشرون من شهر إبريل سنة خمسمائة وواحد وسبعون من الميلاد (٥٧١ م) .

عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «**ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت - أو أنزل علي فيه -**»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين»[2].

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ٩٥).

قال الحافظ ابن رجب في قول النبي ﷺ لما سئل عن صيام يوم الاثنين فقال: «**ذاك يوم ولدت فيه وأنزلت عليَّ النبوة فيه**» قال رحمه الله: (إشارة إلى استحباب صيام الأيام التي تتجدد فيها نعم الله على عباده، فإن أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد ﷺ لهم، وبعثته وإرساله إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1]، فإن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض والشمس والقمر والرياح والليل والنهار وإنزال المطر وإخراج النبات، وغير ذلك؛ فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقاً من بني آدم كفروا بالله وبرسله وبلقائه، فبدلوا نعمة الله كفراً، فأما النعمة بإرسال محمد ﷺ فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، فصيام يوم تجددت فيه هذه النعم من الله على عباده المؤمنين حسن جميل، وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددها بالشكر، ونظير هذا صيام يوم عاشوراء، حيث أنجى الله فيه نوحاً من الغرق، ونجَّا فيه موسى وقومه من فرعون وجنوده وأغرقهم في اليم، فصامه

(١) آل عمران: ١٦٤.

نوح وموسى شكراً لله، فصامه رسول الله ﷺ متابعة لأنبياء الله، وقال لليهود: «**نحن أحق بموسى منكم**»[1]، وصامه وأمر بصيامه)[2].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣/ ٤٤) (٢٠٠٤).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ٩٦).

رضاعة الرسول ﷺ

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا نتجول في سيرة النبي ﷺ العطرة، فنتعطر بها، ونأخذ منها الدروس والعبر في واقعنا، ووقفنا عند حديثنا عن رضاعة النبي ﷺ، فكان أول من أرضع النبي عليه الصلاة والسلام والدته الشريفة العفيفة، آمنة بنت وهب الزهرية، ثم ثويبة مولاة أبي لهب، التي أرضعت حمزة عم النبي ﷺ أيضاً، فكان أخاً للنبي عليه الصلاة والسلام[1].

روى البخاري عن عروة رضي الله عنه قال: ثويبة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب أُرِيه بعض أهله في المنام في شر حال، فقال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيراً، غير أني سقيت في هذه – يعني: ما بين إبهامه وما بين إصبعه – بعتاقتي ثويبة[2]، وذلك لأنه لما بُشِّر بالنبي ﷺ، وقيل له: جاء ولدٌ لأخيك عبد الله، فرح وأعتق ثويبة، فكان هذا الجزاء لفرحه بمولده ﷺ، ويُخَفَّف عنه العذاب في يوم الاثنين كما جاء في بعض الروايات – وهذا رغم كفره – فكيف بنا وقد آمنا برسول الله ﷺ،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦١).

(٢) رواه البخاري (٥١٠١).

وأحببناه، واتبعنا هديه، عليه الصلاة والسلام، نسأل الله تبارك وتعالى تمام الأجر والفضيلة.

وأكثرهنَّ إرضاعاً للنبي ﷺ: حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، من بني سعد بن بكر من هوازن - قبيلة كبيرة بين مكة والطائف -، وزوجها الحارث ابن عبد العزى، وإخوته ﷺ من الرضاعة هم: عبد الله بن الحارث، وأُنَيسة بنت الحارث، وحُذافة بنت الحارث - وهي الشيماء -[1].

وقد أخبرت حليمة رضي الله عنها بقصة إرضاعها للنبي ﷺ فقالت: خرجت من بلدي مع زوجي وابن صغيرٍ لي- وهو عبد الله - في نسوةٍ من بني سعد - قيل: عددهن عشر نسوة - نلتمس الرضعاء - على عادة العرب في تلك الأزمان، أن أهل البوادي يأتون إلى أهل الحواضر فيأخذون الأطفال فيرضعونهم في تلك البوادي حتى ينشئوا على القوة وعلى الرجولة وعلى الشهامة وعلى معاني الصحراء الطاهرة النقية -. قالت: نلتمس الرضعاء في سنةٍ شهباء - أي: سنة قحط- لم تُبق لنا شيئاً، فخرجنا على أتانٍ لنا قمراء - يعني حمار لونها أبيض فيه كدرة - ومعنا شارف لنا - أي: ناقة مسنة - والله ما تبِضُّ بقطرة - أي: ما تُعطِي قطرةً من اللبن -، وما ننامُ ليلنا أجمع من بكاء صبينا

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦١).

الذي معنا من الجوع، ما في ثدييّ ما يُغنيه، ولا ما في شارفنا ما يُغذِّيه – يعني: من اللبن –، ولكنَّا كنَّا نرجو الغيث والفرج.

خرجوا من بواديهم يرجون الغيث ويرجون الفرج، ولم يجد طفل حليمة لا في ثدي أمه، ولا في الشارف التي معهم شيئاً من حليب يسدُّ جوعه، هذه هي الصورة التي كانت قبل مقدمهم لأخذ النبي ﷺ، صورة فيها الهم والكدر والفقر والبؤس والتعب، صورة قاتمة.

قالت: حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه – أي: ترفضه– إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم!، وما عسى أن تصنع أمه وجده!، فكنا نرفضه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً، غيري.

وهذا لما ادّخره الله تبارك وتعالى لحليمة السعدية رضي الله عنها وأرضاها من الخير والبركة والشرف والكرامة، وانظر إلى هذا اليتيم سيد البشرية وسيد الإنسانية والمصلح والهادي والمرشد يُقدم إلى المرضعات فتأبين إرضاعه ظناً منهن أنه لا شأن له، وأنه لا قيمة له!!.

وهنا ينبغي على المسلم أن ينتبه، فلا تقاس الأمور بالماديات المحسوسة، ولا بالأموال، ولا بالجاه، ولا بالمظاهر، إنما تقاس بالصدق والإخلاص، وطاعة الله تبارك وتعالى.

كما نستفيد من ذلك - أيضاً-: الرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين، فلعلك ترحم يتيماً أو مسكيناً فيرحمك الله تعالى، ويرزقك الله عز وجل، ويمطرك بخير عظيم لا أول له ولا آخر، ببركة يتيم أو فقير أو مسكين.

قالت حليمة: فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً، غيري، فلما أجمعنا الانطلاق – أي: العودة إلى البادية- قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى هذا اليتيم فلآخذنَّه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبتُ إليه فأخذتُه، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك –الناقة المسنة التي ليس فيها شيء من اللبن - فإذا هي حافل - أي مليئة باللبن - فحلب منها وشرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة[1].

من البداية جاءت الكرامات، وجاءت الرحمات، وجاءت البركات، إنها عناية الله تبارك وتعالى برسوله ﷺ، هادي الإنسانية ومعلم البشرية، الداعي إلى الله تبارك وتعالى، هذه عنايته سبحانه وتعالى بنبيه محمد ﷺ منذ نشأته الأولى.

---

(١)«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٢، ١٦٣).

قالت حليمة رضي الله عنها: فلما أصبحنا قال لي زوجي: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسمةً مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك - رغم جاهليتهم شعروا بأنواره وبركاته وخيراته عليه الصلاة والسلام، أفلا نشعر نحن مع إسلامنا وإيماننا ومعرفتنا بتلك السيرة العطرة، أفلا نشعر بتلك البركات والخيرات وذلك النور، وذلك السرور يملأ صدورنا وقلوبنا، بلى والله- قالت: ثم خرجنا وركبت أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يابنة أبي ذؤيب، ويحك، أربعي علينا – أي: خففي السرعة، لماذا تسرعين - أليست هذه أتانك التي كنتِ خرجتِ عليها؟ - لأنها عندما أتت بها كانت ضعيفة وحركتها بطيئة – فقالت: بلى والله، إنها لهي هي. فيقلن: والله إن لها لشأناً، ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها[1] - ولكن عناية الله تبارك وتعالى برسوله ﷺ تحيطه من كل جانب -.

تقول حليمة رضي الله عنها: فكانت غنمي تروح عليّ حتى قدمنا بها معنا شباعاً لبُّناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن – تعني: في بني سعد- ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم:

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٣، ١٦٤).

ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبِضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شِباعاً لُبَّناً[1].

فليس السبب في هذه البركة في أغنام حليمة المكان الذي تأكل فيه، ولا المرعى الذي رعت فيه، وإنما السبب وجود النبي الكريم ﷺ عندها، النبي ﷺ الذي يربيه ربه ويرعاه، هذا هو السر في هذا الخير، وفي هذه البركة.

تقول حليمة رضي الله عنها: فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصَلْتُه، وكان يشِبُّ شباباً لا يشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْرَاً – يعني: شديداً غليظاً – قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مُكْثِه فينا، لما نرى من بركته، فكلَّمْنا أُمَّه، وقلت لها: لو تركت بُنيَّ عندي حتى يغلُظ فإني أخشى عليه وباء مكة، فلم أزل بها حتى ردَّته معنا[2]. قالت: فرجعنا به، فو الله إنه بعد مَقْدَمنا به بأشهر، مع أخيه لفي بَهْم – أي غنم – لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتدُّ – يسرع ويجري –، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشقا بطنه. قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه – يعني: متغيراً وجهه –. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٤).

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٤).

يا بُنيَّ، قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو. قالت: فرجعنا به إلى خبائنا[1].

هذه الحادثة معروفة بحادثة شق الصدر، وقد رواها الإمام مسلم وغيره عن أنس ﷺ: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني: مرضعته – فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: «وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ»[2].

وهذا فيه تهيئة لما سينزل على النبي ﷺ، فسوف ينزل عليه جبريل بعد ذلك مرةً بعد أخرى بالقرآن، فكان لابد من تهيئة هذا القلب لتحمل أنوار الوحي، فالله تبارك وتعالى يهيئ الرسول الكريم لمهمةٍ عظيمة تهيئةً مبكرة.

وقد جاء أيضاً في صحيح البخاري[3] أن هذه الحادثة وقعت للنبي ﷺ مرةً أخرى عند الإسراء والمعراج، فقد شق جبريل صدره – عليه السلام –، فقيل

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) رواه مسلم (١٦٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٩/ ١٤٩) (٧٥١٧).

هناك: أن الله ﷻ هيأه لمقام عظيم وهو لقاء ربه تبارك وتعالى، والصعود إلى تلك الدرجات والمقامات العلى، فكان لا بد من تقوية أخرى، ومن تحصينٍ آخر.

ولما حصلت هذه الحادثة، خشيتْ عليه حليمة أن يصيبه شيء، فأعادته إلى أُمِّه آمنة بنت وهب حتى يُكْمِلَ حياته هناك عند أُمِّه عليه الصلاة والسلام[1]، ولم ينسَ النبيُّ ﷺ لحليمة، ولا لآل بني سعد، تلك السنوات التي عاشها بينهم في فترة نشأته وصغره.

ففي معركة حنين، وبعدما انتصر المسلمون، وكان الذين قادوا هذه المعركة مِن بني هوازن، من قبيلة بني سعد بن بكر، فلما انتصر عليهم النبي ﷺ، وأخذ نساءهم وأطفالهم أسرى عنده، وقسمهم بين الصحابة، جاء إليه وفد هوازن، وقالوا: يا رسول الله، تذكر خالتاك وحواضنك من بني سعد، فَرَقَّ لهم النبي ﷺ، وقام في أصحابه خطيباً فقال عليه الصلاة والسلام: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**». فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وبقي بعض الصحابة تلكئوا في ردِّ ما عندهم من السبي، فقال لهم النبي ﷺ : «**أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض، من أول**

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٥).

سبي أصيبه»- أي: ستة أضعافٍ في الفيء والغنيمة القادمة - ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى ما عِدَّته[1].

وذكرتْ كتب السير أن حليمة - أم النبي ﷺ من الرضاعة - جاءت إلى النبي ﷺ يوم حنين، فقام إليها وأكرمها وبسط لها رداءه فجلست عليه [2].

وهنا يعلمنا عليه الصلاة والسلام كيف يكون المسلم وفِيًّا لا ينسى المعروف، ولا ينسى الخير، مهما مرَّت عليه السنون والأعوام، ومهما كبر وأصبح له شأن ومكانة، لا بُدَّ أن يتذكر كل من أحسن إليه، فيردَّ إليهم المعروف كما علمنا ديننا.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر : «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٨٨- ٤٩٠).

(٢) انظر : «عيون الأثر» (١/ ٤٥) .

مرحلة الصِّبا للرسول ﷺ

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نواصل اليوم حديثنا عن دروس وعبر من سيرة النبي ﷺ، فإننا نجد فيها - بإذن الله تعالى- ما ينهض بحياتنا وما يغيرها إلى أحسن حال، فهو الأسوة والقدوة عليه الصلاة والسلام.

وكنا قد تحدثنا في لقاءٍ ماضٍ عن رضاعه ﷺ، وتوقفنا عند حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام، وذكرنا أن حليمة السعدية بعد هذه الحادثة خشيت على النبي ﷺ فردته إلى أمه.

وهنا بدأت مرحلة أخرى من مراحل تربيته ﷺ، وهي مرحلة الصبا، فأول من تكفل به ﷺ أُمُّه آمنة بنت وهب العفيفة الطاهرة، تكفلت به عليه الصلاة والسلام، وعاد إلى حنانها وإلى عطفها ورحمتها بعد أن فقد أباه وهو في بطن أمه عليه الصلاة والسلام، وشاء الله تبارك وتعالى أن تخرج آمنة من مكة بغلامها الزكي النقي الطاهر ﷺ إلى يثرب - المدينة المنورة - وذلك من أجل أن يزور النبي ﷺ أخواله من بني النجار، لأن أم عبد المطلب - جد

النبي ﷺ -، ووالدة عبد الله - أبي النبي ﷺ -: هي سلمى بنت عمرو النجارية، من أهل يثرب[1].

ومن أسباب زيارة آمنة بنت وهب للمدينة أيضاً: ما رأته وفاءً لذكرى زوجها، أن تزور قبره في يثرب، فخرجت من مكة مع يتيمها محمدٍ ﷺ، تسير في الصحاري والقفار، ومعها أم أيمن بركة الحبشية - خادمة النبي ﷺ - فمكثت في المدينة شهراً، وفي طريق عودتها إلى مكة أدركها مرض شديد، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة، وعمره ﷺ ست سنوات[2].

فالنبي ﷺ بعد فقد أبيه، فقد أمه وهو لازال محتاجاً إلى رعايتها وإلى تربيتها وحضانتها، ولكن حكمة الله تبارك وتعالى اقتضت أن يَبْعُد عنه الرحيمان به العطوفان عليه – أبوه وأمه - ؛ ليتكفل برعايته رب العالمين تبارك وتعالى، ويرعاه حقَّ الرعاية، ويؤدِّبه حق التأديب، كما قال بعض أهل العلم: حتى إذا نشأ لم يقل: أبي أبي، وإنما يقول: ربي ربي، ينشأ وقلبه مُعلَّق بالله تبارك وتعالى.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٨)، و«السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» (ص ١١٠).

لقد أصبح الرسول ﷺ يتيم الأب والأم وهو ابن ست سنوات، وصدق الله تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴾[1]، نشأ يتيماً ﷺ ، ولم يكن اليُتم عيباً في حياة الناس في يومٍ من الأيام، فقد كان الرسول الله ﷺ يتيماً، فرعاه الله تبارك وتعالى وربَّاه وحصَّنه وحماه.

والمسلم مطالب برحمة اليتيم ورعايته وكفالته، لاسيما مع الفضل العظيم الذي بشر به النبي ﷺ راعي اليتيم وكافله، فعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً[2]. فكفالة اليتيم فيها الأجر العظيم والثواب الكبير، ولا شك في أن تضييع الأيتام وتضييع حقوقهم وعدم رعايتهم خسارة كبرى وبلاء عظيم ينتج عنه شر مستطير.

فحضنته أم أيمن وهو في الصحراء، ليس له إلا الله تبارك وتعالى، طفل عمره ست سنوات فقد أباه وأمه، فتأتي حاضنته أم أيمن فتحمله في ذلك المكان، بعيدةً عن البنيان، وبعيدةً عن الناس، ولكن الله تبارك وتعالى يرعاه في كل مكان، حتى وصلت به إلى مكة، فأسلمته إلى جده عبد المطلب، فكان ثاني الكفلاء لرسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الضحى: آية ٦ .

(٢) رواه البخاري(٥٣٠٤).

وكان عبد المطلب قد رقَّ له رقةً عظيمةً، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول: عليَّ بابني، فيؤتى به، فكان يناديه ابني[1].

وهكذا ينبغي للمسلم أن يرعى اليتيم، وأن يحسن معاملته، وأن يتقي الله تبارك وتعالى فيه، فإن كان أبوه قد مات فإن الله تبارك وتعالى موجود، وقد توعد سبحانه من يظلم اليتيم ويستولي على ماله، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[2].

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك، حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي، وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه، ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فو الله إن

(١) انظر: «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» (ص ١١٠، ١١١).

(٢) النساء: آية ١٠ .

له لشأناً، ثم يُجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع[1].

وما قال عبد المطلب هذا الكلام من فراغ، إنما قاله لما رآه من جاذبيةٍ في أخلاقه وفي صفاته وفي تصرفاته ومعاملاته عليه الصلاة والسلام، ولما رآه وسمعه أيضاً من أهل الكتاب من إشاراتٍ كانت تشير إلى أنه هو الرسول الكريم ﷺ، كل ذلك جعله يقول هذه المقالة: «دعوا ابني، فو الله إن له لشأناً». نعم، سيكون له شأن، وسيقود ليس مكة فحسب، بل يقود هذه الأمة كلها إلى قيام الساعة.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين توفي جده عبد المطلب بمكة، وذلك بعد حادثة الفيل بثماني سنين، وكان عمره مائة وعشرة أو أكثر، ودفن بالحجون، وكان رسول الله ﷺ يوم موته يبكي خلف سريره، ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أبي طالب عمه الشقيق لأبيه عبد الله، فقد كان عبد الله والد النبي ﷺ، وعمه أبو طالب، شقيقين من أم واحدة، فلذلك أوصاه بابن أخيه [2]، فكان أبو طالب ثالث الكفلاء لرسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٧٩)، و«السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» (ص ١١١).

فانظر إلى هذا الطفل كيف يتنقل من كفيل إلى كفيل، فمن أبيه إلى أمه إلى جده، وهو يفقد واحداً تلو الآخر، والله ﷻ يدخر له تلك المقامات، وتلك الدرجات العالية، فالإنسان لا يأخذ الأمور على ظاهرها، فقد يرى طفلاً صغيراً فيحتقره ويزدريه، وخصوصاً إن علم أنه فقير أو يتيم أو ليس له شأن، والواجب ألا يزدريه فإنه لا يعلم شأنه ومكانته إلا الله تبارك وتعالى.

وظل أبو طالب كافلاً لرسول الله ﷺ حتى بلغ سن الرشد، ولم يتركه بعد ذلك حتى قبضه الله تبارك وتعالى في السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية، عندما بلغ عمر النبي ﷺ خمسين سنة، وعمه يدافع عنه وينافح عنه، متمسكاً بالوصية التي أوصاه بها أبوه، وقد كانوا على غير الإسلام، لكنهم يعملون بالوصية ويحترمونها ويتمسكون بها، ونحن أولى أن نلتزم بها وقد علمنا رسول الله ﷺ أهمية الوصية ومكانتها في دين الله تبارك وتعالى.

لقد كان أبو طالب يحب النبي ﷺ - كما كان يحبه أبوه عبد المطلب - ويعتني به ولا يفارقه، وكان إذا أكل عياله لم يشبعوا، فقد كان فقيراً كثير العيال، ومع ذلك تكفَّل بالنبي ﷺ، فلا يشترط فيمن يكفل يتيماً أن يكون غنياً، بل يكفله رغبة في الأجر، ويتقاسم معه ومع أولاده - إن كان له أولاد - ما يجود الله به تعالى عليهم من رزق.

وهكذا فعل أبو طالب، فقد كان فقيراً كثير العيال، لكنه أخذ بوصية أبيه وتكفل بهذا الطفل، بل قدَّمه على أبنائه، لم يجعله في المؤخرة كما يفعل بعض الظلمة الذين تكفلوا ببعض الأيتام، حيث يكون اليتيم آخر من يأكل، وآخر من يلبس، وآخر من يُنفق عليه، وآخر من يُهتم به !!.

وكان أبو طالب يخص النبي ﷺ بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان إذا أراد أن يغديهم قال: كما أنتم حتى يأتي ولدي. فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك. وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً – أي: الغمس في عيونهم، وشعرهم شعث – ويُصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً [1]، كأنه ما استيقظ من نومه عليه الصلاة والسلام.

وقد حفظ الله جل وعلا نبيه ﷺ في مرحلة صباه من بعض أمور الجاهلية التي قل أن يسلم منها أحد في ذلك الزمان، فلم يكن النبي ﷺ يشاركهم في أمور جاهليتهم، لا في عبادة الأصنام، ولا في الميسر، ولا في شرب الخمر، ولا في الزنا، ولا في حضور مجالس الفسق والفجور، ولا أي شيء من أمورهم الجاهلية.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٢٤٢).

وقد روي أنه ﷺ لم يهم بشيء من أمور الجاهلية مطلقاً إلا مرتين، وحفظه الله تعالى فيهما، وأراد في هاتين المرتين أن يترك غنمه التي كان يرعاها لراعٍ آخر وينزل إلى مكة ليسمر كما يسمر الشباب ويستمع للغناء والمعازف في أحد أعراس الجاهلية، إلا أن الله تعالى حماه في تلك المرتين بأن أنزل عليه النوم والنعاس فلم يحصل له شيء من ذلك، وحماه ربه جل وعلا، وحمى سمعه وبصره عن كل قبيح وسوء [1].

وكل ذلك من تربية رب العالمين لرسوله ﷺ، لينشأ متهيئاً لحمل هذه الرسالة العظيمة التي نتنعم بها ليلاً و نهاراً، بل ويتنعم بها العالم كله، ولا يعلم إلا الله تبارك وتعالى كيف سيكون حال البشرية اليوم، لو لم تأتنا رسالة رسول الرحمة محمدٍ ﷺ .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) اختلف في هذا الخبر، فصححه الحاكم والذهبي كما في «المستدرك» (٤/ ٢٥٤)، وضعفه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٨٧)، والألباني في تحقيقه لكتاب «فقه السيرة» للغزالي (ص٧٢، ٧٣).

رحلة الرسول ﷺ الأولى إلى الشام

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نتابع اليوم - بإذن الله تبارك وتعالى - الدروس والعبر في سيرة النبي المصطفى ﷺ، وكنا توقفنا في المرة الماضية في حديثنا عن طفولته عليه الصلاة والسلام.

واليوم نتحدث عن أول رحلة خرج فيها النبي ﷺ من مكة إلى خارج الجزيرة العربية، وكانت هذه الرحلة وعمر النبي ﷺ اثنا عشر عاماً ، فخرج إلى الشام مع عمه أبي طالب للتجارة.

ومكة ليست بأرض زرع، فليس أمامها إلا الرعي أو التجارة، وكان أهل مكة مشهورين برحلة الشتاء والصيف في التجارة، وأحبَّ النبي ﷺ أن يخرج مع عمِّه، وأحبَّ عمُّه أن يأخذه معه، لأنه حريصٌ على الحفاظ على رسول الله ﷺ، والعناية به، ولا يريد أن يتركه بمكة.

ولكن رغبة الرسول ﷺ - وهو في هذه السن المبكرة - في الخروج للتجارة، فيها إشارة إلى النفس التواقة إلى العمل، وإلى الفضائل، وإلى الخيرات، فهو في هذه السن المبكرة لا يحب الجلوس، ولا يحب أن يكون

عالةً على عمه أو على أحد، فأراد أن يخرج للعمل والكسب، لاسيما وعمه كان فقيراً.

لقد أراد النبي ﷺ - وهو في هذه السنِّ المبكرة - أن يخرج في هذا السفر ليتعلم، ويتعرف على الناس وعوائدهم، ويكتسب خبرات عملية في هذه الحياة، وأيضاً يتكسب بالحلال حتى يعين عمه على أعباء الحياة.

وقد يقول بعض الناس: إنَّ الطفل وهو في سِنٍّ مبكِّرة لا ينبغي أن يعمل أو يتعلم حِرْفةً أو يشتغل بتجارة، وهذا كلام غير صحيح، فإنَّ الصغير يبدأ من هذه السنِّ في تلقي المهارات، وفي تلقي الخبرات، وفي هضمها والتمكّن منها.

المهم أنَّ الرسول ﷺ رغب في السفر مع عمه، وكانت هذه السفرة إلى بلاد الشام، وكنا ذكرنا عند ولادته عليه الصلاة والسلام أن أمه رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصورُ بصرى في أرض الشام، وقلنا: إن هذا فيه إشارة إلى أن دينه عليه الصلاة والسلام سينتـشر في تلك الديار، وسينطلق منها، وسيكون لبلاد الشام شأن في حمل دين الله تبارك وتعالى.

ولم يسافر النبي عليه الصلاة والسلام خارج الجزيرة إلا إلى الشام، وهذا فيه إشارة إلى فضيلة الشام وشرفها.

توجَّه النبي ﷺ إلى بلاد الشام في قافلةٍ مع عمه أبي طالب، ووصل إلى مدينة بُصرى[1]- وكانت من كبرى المدن التي تنتشر فيها التجارات والأعمال – ونزل النبي ﷺ وعمه منزلاً قريباً من صومعة راهبٍ اسمه بَحِيرى، وشاء الله تعالى أن يُطِلَّ من أعلى صومعته فيرى قافلة قريش وهي قادمة نحوه، ويرى في هذه القافلة غلاماً صغيراً تظلله غمامة لتحفظه من حر الشمس، فعلم أن لهذا الغلام شأناً، ويُحكى أن هذا الراهب رأى الشجر والحجر في ذلك الوادي يسجدون لذلك الغلام، فقال: لا يسجد حجر ولا شجر إلا لنبي.

وعند أهل الكتاب علامات واضحة لرسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل، حتى إن الله ﷻ أكَّد وجود هذه العلامات عند أهل الكتاب، فقال جل وعلا: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

وهذا نبي الله عيسى – عليه السلام –، وهو آخر الأنبياء قبل نبينا محمد ﷺ، جاء مبشراً به عليه الصلاة والسلام، كما قال سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ**

---

(١) بصرى: مدينة حوران، فُتحت صلحاً لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة، وهي أول مدينة فتحت بالشام، وقد وردها النبي ﷺ مرتين .

(٢) البقرة: ١٤٦.

﴿مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

وإن كانت التوراة قد حُرِّفت، والإنجيل قد حُرِّف، إلا أنه لا زالت فيهما - إلى الآن - إشارات واضحة إلى بعثة النبي ﷺ.

قال جل وعلا - حاكياً عن اليهود -: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[2]، لقد كان اليهود في المدينة يقولون للأوس والخزرج إذا تنازعوا معهم: لقد أظلنا زمان نبيٍ، سيظهر ونتبعه ونقتلكم قتل عادٍ وإرم، واليهود ما جاؤوا وسكنوا في خيبر إلا بحثاً عن هذا النبي ﷺ، الذي كانوا يتوقعون أنه يظهر منهم، كانوا يتوقعونه من ولد إسحاق - عليه السلام -، وشاءت إرادة الله أن يظهر من ولد إسماعيل - عليه السلام -، فعند ذلك حقدوا على العرب وحقدوا على المسلمين؛ قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

---

(١) الصف: ٦ .

(٢) البقرة: ٨٩ .

(٣) البقرة: ٨٩ .

والحاصل أن وصفه ﷺ كان معروفاً عند أهل الكتاب، فلما وقفت القافلة للنزول في ذلك المكان من بُصرى بالشام، والذي فيه الراهب بَحِيرى، وكان له علمٌ بالنصرانية، فلما نزلوا ذلك العام ببحِيرى، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم. ولما نزلوا في ظل شجرة قريباً منه رأى أغصان الشجرة تتدلى على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى بَحِيرى ذلك ، نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم، فما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنَّا نمُرُّ بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أُكْرِمكم، وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كُلُّكم. فاجتمعوا إليه، وتخلَّف رسول الله ﷺ من بين القوم، لحداثة سنه، في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفنَّ أحد منكم عن طعامي، قالوا له: يا بحيرى، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن

يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سناً، فتخلف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش: واللات والعزى، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم. فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرى، فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك، لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزى، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. فلما فرغ، أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبْغُنَّه شراً،

فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرِعْ به إلى بلاده. فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة، حين فرغ من تجارته بالشام[1].

هذا حدثٌ واحدٌ من أحداث هذه السيرة العطرة للنبي ﷺ، وهي واحدة من تلك المعجزات الكثيرة التي زخرت بها سيرة النبي ﷺ، وهذه من إرهاصات النبوة، جاءت قبل مبعثه ﷺ، حتى تهيأت نفسيته بتقبل نزول الوحي ونزول القرآن على قلبه صلوات ربي وسلامه عليه.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر هذه القصة بالتفصيل في: «سيرة ابن إسحاق» (ص ٧٣- ٧٥)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٠ - ١٨٣).

حرب الفجار وحلف الفضول

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا نتابع الحديث في أخذ الدروس والعبر من سيرة النبي المصطفى ﷺ،علَّنا نطبقها في واقع حياتنا، وعلَّنا نقتدي بها ونتأسى بها.

ولا زلنا نتحدث في مرحلة شبابه ﷺ، ونتحدث اليوم عن حادثتين كبيرتين حدثتا في مكة المكرمة بعد بلوغ النبي ﷺ سن الخامسة عشرة [1]، إلى سن العشرين ، وقد حدثتا في مكة وشارك فيهما النبي ﷺ :

الحادثة الأولى: حرب الفجار، والحادثة الثانية: حِلف الفضول؛ فقد شارك فيهما النبي ﷺ ، رغم أننا علمنا في خطبة ماضية أنه لم يكن يشاركهم في أمور الجاهلية، لا في عبادة الأصنام، ولا في الميسر، ولا في شرب الخمر، ولا في الزنا، ولا في حضور مجالس الفسق والفجور، فقد برأه الله تبارك وتعالى منها، وبغَّضها إلى نفسه عليه الصلاة والسلام، فنشأ عفيفاً طاهراً صالحاً هادياً مهدياً عليه الصلاة والسلام، وهذا من تهيئة رب العالمين له تبارك وتعالى، فلم يكن كسائر الشباب الذين نشئوا في ذلك العصر الجاهلي، وإنما

(١) انظر : «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٤) .

حفظه الله تبارك وتعالى، لكنه شارك في هاتين الحادثتين لأسباب سنذكرها بإذن الله تعالى:

فأما حرب الفجار[1] فسُمِّيت بحرب الفجار نسبةً إلى أن أهل الجاهلية الذين اقتتلوا فيها، وانتهكوا حرمة الأشهر الحرم التي حرمها الله تبارك وتعالى، وهي (شهر ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم - ثلاثة متتابعة -، ورجب - مفترق عنها -) فكانوا يعظمون هذه الأشهر، فلما حدثت هذه الجرأة على هذه الأشهر الحرم، سميت هذه الحرب بحرب الفجار، من كثرة ما اعتدوا وفجروا فيها، وتعدوا فيها على حرمة هذه الأشهر.

وتعظيم الأشهر الحرم من بقايا دين إبراهيم - عليه السلام -، وجاء دين الإسلام فأيد هذا الأمر وثبته، وقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ

(١) قال السُّهيلي في «الروض الأنف» (٢/ ٢٣٣) : «الفِجَار بكسر الفاء بمعني المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وذلك أنه كان قتالًا في الشهر الحرام ففجروا فيه جميعًا فسمي الفجار. وكانت للعرب فجارات أربع آخرها فجار البرّاض المذكور في السيرة» .

أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

فالإسلام جاء وأكَّد حرمة هذه الشهور، وعلى المسلم أن يتحفظ في هذه الأشهر الحرم أكثر مما يتحفظ في غيرها، وخصوصاً: من ظلم الناس.

وليس لشهر رجب من المزايا إلا هذه الحرمة التي ميَّزه الله بها مع الأشهر الحرم الثلاثة الأخرى، وأما ما أدخله بعض الناس في هذا الشهر من إضافات واختراعات لم يأت بها نبي الهدى ﷺ، ولم تثبت في سيرته عليه الصلاة والسلام، فهو مما ينبغي رده وإنكاره، ونصيحة من يفعله بالعدول عنه.

وسبب حرب الفجار أن النعمان بن المنذر أمير الحيرة - وكان موالياً للروم، وجاسوساً على العرب - كان يبعث بتجارةٍ له كل عام إلى سوق عكاظ، وكان يجيرها له رجل من أشراف العرب حتى تُباع، وكان على تجارته في ذلك العام عروة الرَّحال، فتربص له البرَّاض بن قيس – أحد بني ضمرة ابن بكر بن عبد مناة- والتمس غفلته، فوثب عليه وقتله في الشهر الحرام، ونشبت الحرب بين قريش وهوازن بسبب ذلك[2].

---

(١) سورة التوبة: آية٣٦.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٤، ١٨٥).

واستمرت هذه الحرب فترةً طويلة، فقيل: إنها استمرت أربع سنوات، وهم بين كرٍ وفرٍّ، يتواعدون كل سنةٍ في السنة التي تليها، يتهيئون ويستعدون لذلك القتال، وكانت الحرب بالنسبة لقريش دفاعاً عن قدسية الأشهر الحرم، وهي من بقايا دين إبراهيم كما ذكرنا؛ فقد كان الرجل في الجاهلية يلقى قاتل أبيه فتمنعه الأشهر الحرم من أن يقتله.

وكانت الغلبة في هذه المعارك الطاحنة لقريش وكنانة على هوازن وقيس، ثم نادى عتبة بن ربيعة بالصلح، وكان عمره ثلاثون سنة فاصطلحوا على دفع دية القتلى، وانتهت تلك الحرب الدامية، وشهدها رسول الله ﷺ - أو شهد بعضاً منها -، فقد أخرجه أعمامه فيها، وقال عليه الصلاة والسلام: «**كنت أُنَبِّل على أعمامي**»[1]، أي: أردَّ عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، وهذا من شجاعته عليه الصلاة والسلام، ومن تهيئة رب العالمين له لما بعد ذلك من المسئوليات ومن الحروب التي شارك فيها النبي ﷺ، فكان قمةً في

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٥). وقد أورده ابن هشام بدون سند ، وكذا ذكره ابن إسحاق كذلك بدون إسناد، وسكت عنه الشيخ الألباني-رحمه الله- في تعليقه على «فقه السيرة» للغزالي، لكنه لم يدرجها في «صحيح السيرة النبوية» ، وكذا لم يذكرها الشيخ محمَّد بن رزق الطرهوني في «صحيح السيرة» ، وذكر الدكتور أكرم ضياء العمري : أنه لم يثبت أن رسول الله ﷺ شهد حرب الفجار. وانظر مزيد بيان لذلك في : «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» للدكتور محمد بن عبد الله العوشن، ط . دار طَيبة (ص ١٧ ، ١٨) .

الشجاعة، وقمةً في البطولة، دافع فيها عن الحق والعدل والإنصاف، وعن كل خير.

ولم تكن حروبه - التي حاربها عليه الصلاة والسلام - في يومٍ من الأيام لسفك الدماء، وقتل الأطفال والنساء والأبرياء - كما يفعل هؤلاء الصهاينة المجرمون ومن عاونهم على المسلمين – بل كانت غزواته وسراياه ومعاركه ﷺ لنصرة المظلوم، وردِّ الظالم عن ظلمه، ولرفع راية الحق والعدل، ولقد سعدت الأرض أيما سعادة بظهور هذا الدين الكريم الذي أنعم الله ﷻ به علينا.

وأما الحادثة الثانية فهي: حلف الفضول، وسمي حلفاً لأنهم حلفوا فيها، والفضول لأنهم قاموا وحلفوا على أمرٍ فاضل، وسببه أن رجلاً من زبيد من اليمن جاء مكة ببضاعةٍ فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، من أهل مكة من أهل قريش، فمنعه حقه، أخذ منه البضاعة ولم يعطه الثمن، فاستعدى عليه عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهْماً وعدي بن كعب، فلم يكترثوا له، ولم يستمعوا لشكواه، بل زجروه، فلما رأي الزبيدي ذلك، أنشأ أبياتاً يشرح فيها مظلمته، وصعد على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته :

يـا آل فهـر لمظلـوم بضـاعته بـبطن مكـة نـائي الـدار والنفـر

ومحـرم أشـعث لم يقـض عمرتـه يا للرجال وبين الحجـر والحجـر
إن الحــرام لمــن تمــت كرامتــه ولا حرام لثـوب الفـاجر الغـدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: «ما لهذا مترك؟!»[1]، فاجتمع بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، في دار عبد الله بن جدعان - وكان من أكبرهم سناً - فاجتمعوا في داره تكريماً لسنه.

ونحن أولى أن نكرم كبار السن، وقد دعانا الإسلام إلى ذلك، فعن أنس ﷺ قال: جاء شيخ يريد النبي ﷺ فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له، فقال النبي ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**»[2]، فإذا كان هؤلاء في جاهليتهم يعرفون فضل الكبار في السن، ويحترمون رأيهم، وإن كان الكبير قد ضعف جسده وضعفت قواه، ولكن رأيه وحكمته ورشده وعقله أرجح من عشرات - وربما مئات - من الشباب الصغار، ونحن بحاجةٍ إلى عقول هؤلاء الكبار وحكمتهم، ولا يمكن أبداً أن نستغني عن حكمتهم وعن رأيهم.

---

(١) ما لهذا مترك: أي: لا يصح أن يترك.

(٢) رواه الترمذي (١٩١٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٩٦)، و«صحيح الجامع» (٥٤٤٤).

والحاصل أنهم اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في ذي القعدة في شهرٍ حرام، وتعاقدوا، وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدَّى إليه حقه[1]، فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول لذلك، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضلٍ من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل وانتزعوا منه حق الزبيدي[2]، وشهد رسول الله ﷺ حلف الفضول وكان عمره عشرون سنة [3].

قال عليه الصلاة والسلام: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[4].

فانظر كيف كان النبي ﷺ يفكر وهو في هذه السن، سن الشباب، لقد كان يفكر في نصـرة المظلوم، بل يشارك ﷺ وعمره عشرون سنة في هذا الحلف الذي يحقق الحق والعدل، وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون إيجابياً في مجتمعه، وأن يقف مع الحق والعدل، وينصف المظلوم من ظالمه.

ومعنى(حمر النعم) يعني أنفس الإبل وأغلاها، لا يستبدلها النبي ﷺ بهذا الحلف، وهذا دليل على فرحه بذلك.

---

(١) انظر: «الروض الأنف» (٢/ ٤٦، ٤٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير(١/ ٢٥٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» (ص ١٣١).

(٤) انظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ٥٩٦) (١٣٠٨٠)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٣٤).

وتكررت هذه القصة مع العاص بن وائل، وكأن العاص قد جبل على المماطلة وأكل أموال الناس بالباطل، فعن خباب بن الأرت ﷺ قال: كنت قَيْنَاً - أي: حداداً - في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: «لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تُبعث»، قال: دعني حتى أموت وأبعث، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾[1].

وللأسف الشديد، فإن ما فعله العاص بن وائل- الجاهلي -، هو حال كثير من الناس في هذه الأيام – رغم إسلامهم وإيمانهم وتأسيهم برسول الله ﷺ في بعض مظاهر التأسي!-، فيأكلون أموال الناس بالباطل، ويمنعون الحقوق، ويماطلون في ردها لأصحابها؛ مع أن النبي ﷺ حذرنا من ذلك وقال: «**مطل الغني ظلم**»[2]، وقال ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه**»[3]. فلا بد أن يُردع الظالم، وأن يُنصر

---

(١) مريم: ٧٧ - ٧٨، والحديث رواه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٠٤)، وأحمد (٥٣٩٥) (٩/ ٢٩٢)، وقال محققو المسند: «حديث صحيح لغيره»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٨٧٠).

(٣) رواه أحمد (٣٠) (١/ ٢٠٨)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

المظلوم، وأن تُردَّ الحقوق لأصحابها، وهذا ما حصل في حلف الفضول في الجاهلية، ونحن أولى باعتبارنا مسلمين أن نكون بهذه المثابة، وألا نترك مظلوماً بيننا إلا وسعينا لنصرته.

وهكذا شارك النبي ﷺ في هذا الحلف وأثنى عليه حتى في الإسلام، لما فيه من نصرة المظلوم ومن إعانة المظلوم، وإعانة الظالم على نفسه، فقد قال النبي ﷺ: «**انصر أخاك ظالما أو مظلوماً**»، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالما؟ قال: «**تأخذ فوق يديه**»[1].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) رواه البخاري (٢٤٤٤)، ورواه مسلم (٢٥٨٤) بلفظ: «**ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نصر وإن كان مظلوماً فلينصره**».

زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نواصل سلسلة أحاديثنا في أخذ الدروس والعبر من سيرة النبي المصطفى ﷺ،هذه العبر والدروس التي نحن في أمس الحاجة إليها، لنسعد بها في حياتنا الدنيا، ووقف بنا المطاف في سيرته ﷺ بعد حلف الفضول وحرب الفجار، والتي شارك فيها النبي ﷺ بعد بلوغه، وتحدثنا قبل ذلك عن سفره مع عمه إلى بلاد الشام.

ونواصل اليوم الحديث – إن شاء الله تبارك وتعالى – عن رحلة النبي ﷺ الثانية إلى بلاد الشام، وقد سبق أن تحدثنا عن الحكمة من ذهابه ﷺ إلى بلاد الشام، فإن بلاد الشام ستشهد الصراع بين الحق والباطل إلى قيام الساعة، وفيها العصبة المؤمنة التي ذكرها النبي ﷺ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك**». قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: «**ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس**»[1].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٣٢٠) (٣٦/ ٦٥٦، ٦٥٧) قال محققو «المسند»: حديث صحيح لغيره دون قوله: «قالوا: يا رسول الله، وأين هم... إلخ»، وهذا إسناد ضعيف لجهالة عمرو بن عبد الله السيباني الحضرمي، فقد تفرَّد بالرواية عنه يحيى بن أبي عمرو السيباني، ولم يوثقه غير ابن حبان والعجلي.

فلم يكن ذهابه ﷺ إلى الشام مجرد أمر لا معنى له، فالشام من خيرة أرض الله، وهي أرض المحشر والمنشر، وهي أرض المؤمنين في آخر الزمان الذين يحفظهم الله تبارك وتعالى ويحفظ عليهم دينهم.

قال ابن إسحاق: «كانت خديجة بنت خويلد[1]، رضي الله عنها، ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيءٍ تجعله لهم»[2]، وكانت قريش قوماً تجاراً ليس لهم في الزراعة ولا غيرها من المهن، اللهم إلا الرعي والتجارة، وقد سجَّل الله ذلك في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾[3].

قال ابن إسحاق: «فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسـرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام»[4].

---

(١) هو خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فخديجة رضي الله عنها تشترك في النسب مع رسول الله ﷺ.

(٢) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ٨١، ٨٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٧، ١٨٨).

(٣) قريش: ١ - ٢ .

(٤) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ٨١، ٨٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٨).

وكان النبي ﷺ في كفالة عمه أبي طالب، وكان عمه فقيراً - كما ذكرنا - وقد خرج به إلى الشام قبل ذلك، وخرج النبي ﷺ هذه المرة بمفرده، رغم صغر سنه، حتى يُعِفَّ نفسه، ويعين عمَّه، وهذا يدل على علو الهمة، فهو على صغر سِنِّه، ورغم فقره عليه الصلاة والسلام؛ لا يريد أن يكون عالةً على أحد، ولا يريد أن يرهق أحداً، وإنما يريد أن يشق طريقه بنفسه، وهذا درس للشباب ليعتمدوا على أنفسهم، وينطلقوا في هذه الحياة مكافحين مجتهدين مجاهدين، والذي يسعى ويعمل ليعف نفسه عن الحرام فهو في سبيل الله تبارك وتعالى كما بشر النبي ﷺ.

وقدم النبي ﷺ الشام، وكان ذلك عام خمسمائة وخمسة وتسعون (٥٩٥م) وبلغ سوق بصـرى وهي مدينة قريبة من دمشق في طريقها، وله إذ ذاك عليه الصلاة والسلام خمس وعشرون سنة، فنزل تحت ظل شجرةٍ، فقال نسطور الراهب لميسرة - وكان ذا صلةٍ به قبل ذلك -: من نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له نسطور: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي[1].

وكان ميسرة في الهاجرة عند اشتداد الشمس يرى مَلكين يُظلِّلان رسول الله ﷺ، فلما رجع الرسول ﷺ إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٨).

الربح والبركة ما لم تره من قبل، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى في النبي ﷺ من صفات نبيلة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، وجدت ضالتها رضي الله عنها وأرضاها، وكان السادات من قريش يحرصون على الزواج منها فتأبى عليهم، وكانت تُسمى في الجاهلية بالطاهرة، وسيدة قريش، وكانت حازمةً جلدةً شريفةً عفيفةً رضي الله عنها وأرضاها، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منيَّة، فذهبت وأخبرت رسول الله ﷺ بذلك، وقالت له على لسان خديجة: يا بن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِك - يعني شرفك في قومك - وحسن خلقك وصدق حديثك[1].

إذاً وهي في جاهليتها تبحث عن شرف النفس لا شرف المظهر، تبحث عن جمال النفس والروح والخلق والدين، وهي أمور عزف عنها الكثير من الناس في أيامنا هذه، وأصبح نظرهم إلى ظاهر الأمور، وكأننا آلات ولسنا بشـراً.

فخديجة رضي الله عنها، برجاحة عقلها، وزكاة نفسها، وطيب معدنها، بحثت عن صاحب الخلق والدين، فقبل النبي ﷺ بها لما يعلم من أخلاقها وفضائلها، وكلم أعمامه، وذهب معه عمه أبو طالب، وحمزة بن عبد المطلب، في عشرين من قومه حتى دخلوا على عمها عمرو بن أسد، وكان والدها

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٨٩).

خويلد قد توفي في حرب الفجار، وساقوا الصداق عشرين بكرة، ووقف أبو طالب يخطب في حفل عقد النكاح، وكان مما قاله في تلك الخطبة: «أما بعد: فإن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قل، فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك»[1]. فأجابه عمها بالقبول، وتم هذا العقد المبارك لرسول الله ﷺ مع سيدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وكان هذا الزواج بعد رجوعه من الشام بشهرين وخمسةٍ وعشرين يوماً، في شهر ربيعٍ الأول وعمره ﷺ خمس وعشرون سنة، وعمر خديجة رضي الله عنها أربعون سنة.

وهذا أيضاً فيه درس لأولئك المستشرقين الملحدين، الذين عاشوا في الفجور والفسق والفساد، فينظرون بعيونهم الملوثة القذرة، فيرون كل شيءٍ قذراً، ويرون كل شيء ملوثاً، فاتهموا رسول الله ﷺ بأنه شهواني، وأنه أكثر من تزوج النساء لذلك، ولو كان كما قال هؤلاء الكذبة لما تزوج وعمره خمس وعشرون سنة - وهو في قمة الشباب والشهوة - من امرأة عمرها أربعون سنة، فهذا أكبر دليل على أنه ﷺ ما كان ينظر بهذا المنظار، ولا يقيس الأمور بهذا المقياس، ولا يزن بهذه الموازين الخربة الصدئة، وإنما يزنها بميزان العقل

(١) انظر: «الروض الأنف» (٢/ ٢٣٨).

والحق والصدق والأمانة عليه الصلاة والسلام، وهو ميزان الإسلام والدين، جاء به نبينا ﷺ.

وعاش النبي ﷺ مع خديجة حتى ماتت وعمرها خمس وستون سنة، لم يتزوج عليها عليه الصلاة والسلام طيلة هذه السنين، فأي شهوةٍ هذه التي يدعيها أولئك الكذابون؟!، لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة إلا بعد وفاتها، بأمرٍ من ربه تبارك وتعالى.

وقد ولدت خديجة رضي الله عنها له القاسم، وبه يكنى في الإسلام، فهو أبو القاسم عليه الصلاة والسلام، ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، وكان عبد الله يُلقَّب بالطاهر والمطهّر وبالطيب، ثم رُزق بعد ذلك إبراهيم من مارية، وهو الوحيد من غير خديجة رضي الله عنها وأرضاها.

ومات سائر أبنائه – أعني الذكور – وهم صغار في حياته عليه الصلاة والسلام، لحكمةٍ يريدها الله تبارك وتعالى، فالله جل وعلا يهيئ رسوله ﷺ لحمل رسالة وأمانة كبرى، وهي رسالة الإسلام، وقد يكون لموت أبنائه صلةٌ بهذا الأمر، فإنه يحصل له حزن ورحمة وشفقة بأبنائه وعليهم، وهو سيتولى أمة بأسرها، ولا بد لمن يتولى الأمم ويقودها أن يكون عطوفاً رحيماً حتى يرحمهم ويشفق بهم ويحنو عليهم.

وهكذا رباه ربه تبارك وتعالى، مات أبوه ليتولى تربيته ربه، ثم مات أبناؤه عليه الصلاة والسلام وهم صغار في حياته أيضاً، ليربيه الله تبارك وتعالى، وليكون متصلاً بالله تبارك وتعالى، لا يعتمد على أب ولا على ابن، ولا يستنصر بأب ولا بابن، وإنما يستنصر بالله وحده.

وبعد زواجه ﷺ لم يسافر في تجارة ولا في غيرها حتى هاجر إلى المدينة، وحُبِّب إليه - بعد ذلك الزواج - الخلاء، فكان يختلي بربه تبارك وتعالى في غار حراء، بدأ من ذلك التاريخ يذهب إلى غار حراء ويتأمل في كون الله، وينظر في عظمة الله تبارك وتعالى، وفي قدرة الله تبارك وتعالى، وكان هذا أيضاً من التهيئة والإعداد لنبوة النبي ﷺ.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



تجديد بناء الكعبة

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا في استخلاص الدروس والعبر، من سيرة النبي المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ، ووقف بنا الحديث عند زواجه عليه الصلاة والسلام من خديجة بنت خويلد بعد عودته من سفره في تجارتها إلى الشام، واليوم نقف عند حدث مهم وقع قبل بعثته عليه الصلاة والسلام بخمسة أعوام، وكان تمهيداً وإرهاصاً بنبوته عليه الصلاة والسلام، وإشارةً إلى أنه رسول هذه الأمة، هذا الحدث هو: تجديد بناء الكعبة، وكان ذلك التجديد على يدِ المشركين في الجاهلية قبل الإسلام، ومع ذلك فإنَّ الله تبارك وتعالى حفظ هذا البناء من أن يكون من أموال حرام، أو من أموال مشبوهة، فألهم الكفرة المشركين أن يأخذوا أطيب أموالهم لتجديد بناء هذه الكعبة.

لقد كانت الكعبة في عهد نبي الله إبراهيم ﷺ - وإلى أن جَدَّد بناءها أهل مكة- بطول تسعة أذرع، وكان بابها ملاصقاً للأرض، ولم يكن لها سقف، فجاء سيل كبير إلى مكة قبل بعثة النبي ﷺ بخمسة أعوام، وقد كان عمر النبي ﷺ وقتها خمساً وثلاثين سنة[1]، فتصدع بناء الكعبة، وسُرِق ما بها من هدايا

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٢).

وحُلي، فعند ذلك أجمع أهل مكة على تجديد بنائها، وكان البحر قد رَمَى بسفينةٍ إلى جُدَّة، لرجلٍ من تُجَّار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها، وأعدوه لتسقيف الكعبة، واستعملوه في تجديد بنائها، وزادت قريش في طولها حتى أصبح ثمانية عشر ذراعاً وعملت لها سقفاً ورفعت الباب حتى لا يدخل لها من شاء إلا بأمرهم، وحتى يكفوا عنها السُّرَّاق.

ولما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها: قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معـشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مَهْر بَغِي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس[1].

هكذا المنطق والعقل والضمير يقول، وهكذا كانوا على جاهليتهم يعرفون عظمة البيت الحرام، فيا ليتنا نعرف عظمة المسجد الحرام، فنعطيه حقه من الاحترام والتكريم والتعظيم.

ثم إنَّ قريشاً جزَّأت الكعبة - أي: قسَّمتها بينهم في البناء- ؛ فكان شِق الباب: لبني عبد مناف وزُهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليماني: لبني مخزوم، وقبائل من قريش انضافت إليهم، وكان ظهر الكعْبة: لبني جُمَح،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٤)، وقال ابن هشام - بعد أن أورد ذلك القول-: «والناس ينحلون هذا الكلام الوليدَ بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم».

وبني سَهْم، وكان شق الحِجْر- وهو الحطيم-: لبني عبد الدار، ولبني أسد ابن عبد العزى، ولبني عدي[1].

وحتى يبنوا الكعبة، كان لا بد من هدم البناء المتضرر أولاً، إلا أن الناس هابوا هدم بناء الكعبة المتهدم والمتضرر، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لا تُرَعْ - أو: لم نَزِغ -، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: إن أُصِيْبَ، لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإلا فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله، فهدم وهدم الناس معه[2].

وأخذوا في جمع الحجارة للبناء وأخذوها من جبل الكعبة، ولذلك سمي ذلك الجبل الذي أخذت منه تلك الحجارة في مكة الآن بجبل الكعبة وهو جنوبي الكعبة، فبنوا، وكان النبي ﷺ - كما ذكرت الروايات الصحيحة[3]-

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٥)، و«مختصر سيرة الرسول ﷺ» لمحمد بن عبد الوهاب (ص٧٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٥)، و«مختصر سيرة الرسول ﷺ» لمحمد بن عبد الوهاب (ص٧٠).

(٣) روى البخاري(٣٦٤) ومسلم (٣٤٠) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم – أي: مع المشركين - الحجارة للكعبة وعليه إزاره»، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي،

يحمل معهم الحجارة وينقلها من الجبل لبناء الكعبة المشرفة، وهذا يدل على مشاركته ﷺ في كل عمل نبيل وطاهر ومبارك، وبعده عن كل عمل سيئٍ وخبيث، وذلك قبل أن يوحى إليه وقبل أن يُكَلَّف بالرسالة والنبوة عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن - أي: موضع الحجر الأسود-، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا[1]، وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقرَّبت بنو عبد الدار جَفْنَةً مملوءةً دَمَاً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجَفْنَة، فسُمُّوا: لَعَقَةَ الدَّمِ، فمكثت قريشُ على ذلك أربعَ ليالٍ أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا[2].

لو حللت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة، قال: «فحلَّه فجعله على منكبيه، فسقط مغشياً عليه، فما رئي بعد ذلك عرياناً ﷺ» .

(١) أي: انحاز كل منهم لجهة .

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٦، ١٩٧).

لما وصلوا في البناء إلى موضع الحجر الأسود، اختصموا فيمن يضعه في مكانه، كل قبيلةٍ تريد أن ينالها هذا الشرف، هم على جاهليتهم يعرفون هذا الشرف، والكثيرون منا اليوم لا يعرفون فضل ولا شرف البيت الحرام، وكم منا اليوم يُقَصِّر في زيارة الحرم، وفي استلام الحجر الأسود وتقبيله، وفي الصلاة والطواف والاعتكاف بالبيت الحرام، وفي الصلاة خلف مقام إبراهيم – عليه السلام –، بحجج كثيرة واهية، والشيطان يلهينا ويشغلنا.

المهم أن أهل مكة اختصموا خمسة أيام حتى كاد أن يقع بينهم قتال بسبب وضع الحجر الأسود، فأشار عليهم أكبرهم سناً بحلٍّ رضوا به جميعاً، وكان أكبرهم سناً في ذلك الوقت أبو أمية بن المغيرة المخزومي، وهكذا نرى مرةً أخرى أنه حتى في الجاهلية قبل الإسلام، كانت هناك بقايا من الأخلاق الفاضلة، بقايا من الصفات الفطرية الطبيعية التي لا يمكن أن تنزع من الإنسان السوي والطبيعي، ومنها: صفة احترام الكبير، وجاء الإسلام وأكَّدها، ودعمها، فالإسلام يحث على استشارة الكبير، واحترام الكبير، وينهى عن التطاول عليه، ونحن في هذا الزمان – وللأسف الشديد– قصَّرنا كثيراً في هذا الجانب، فالكثيرون اليوم لا يقدرون الكبير، ولا يرحمون

الصغير، مع أن نبينا محمداً ﷺ قال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**» وفي رواية: «**ويعرف حق كبيرنا**»[1].

والمهم هنا: أن أهل مكة في علاج مشكلة وضع الحجر الأسود، رجعوا إلى رأي أكبرهم سناً وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي، ورأى أن يحتكموا إلى أول من يدخل إلى الحرم من باب الصفا، ووقف القوم ينظرون مَن هذا الداخل؟ فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «**هَلُمَّ إليَّ ثَوْباً**»، فأُتِيَ به، فأخذ الركنَ فوضعه فيه بيده، ثم قال: «**لتأخذ كل قبيلة بناحيةٍ من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً**»، ففعلوا: حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه[2].

وتأمل في ذلك القبول وذلك القول من المشركين في مقام النبي ﷺ قبل الإسلام: «هذا الأمين، رضينا، هذا محمد»، هكذا كانوا يرون النبي ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي، وقبل أن يدعو إلى الإسلام، وهذه شهادة حق، وإن كان كثيرون منهم لزيغهم وضلالهم غيروها بعد أن نزل الوحي على النبي

---

(١) رواه الترمذي (١٩٢٠) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعاً، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٧).

ﷺ، فزعموا – زوراً وبهتاناً – أنه شاعر وكاهن ومجنون، وغير ذلك من التهم الباطلة التي سطرها القرآن وأنكرها وبرأ نبينا ﷺ منها.

ونأخذ من هذه الحادثة درساً آخر، وعبرةً أخرى، وهي: أن الكعبة رمز الإسلام، وهي رمز التوحيد الذي قام عليه الإسلام، وهي رمز الحج الذي يأتي إليه المسلمون من مشارق الأرض ومن مغاربها، وهي قبلة المسلمين في كل بلد على وجه الأرض يتوجهون إليها في صلاتهم لربهم جل وعلا، فالإسلام والكعبة متلاصقان، فعندما تُبنى قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ويُشارك هو في بنائها، ويضع الحجر الأسود بنفسه عليه الصلاة والسلام ، فيُخَتمُ هذا البناء المبارك على يده الشريفة، ففي هذا إشارة إلى قدوم الإسلام، واكتمال الشرائع ببعثة النبي ﷺ، فكأن الله ﷻ أراد أن يكون تجديد بناء الكعبة واكتمال بنائها قبل بعثته عليه الصلاة والسلام تمهيداً وإرهاصاً بنبوته صلوات ربي وسلامه عليه.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



البعثة ونزول الوحي على الرسول ﷺ

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا نواصل الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ، وكنا توقفنا عند حادثة بناء الكعبة ودوره ﷺ في رأب الصدع، وحلِّ الخلاف فيمن يضع الحجر الأسود، فوضعه عليه الصلاة والسلام في ثوبٍ، وحملته كل قبيلةٍ من طرف، ثم وضعه عليه الصلاة والسلام بيده الشريفة، وذكرنا أنه كان له من العمر عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت خمساً وثلاثين سنة[1].

ولما اقترب موعد البعثة النبوية ونزول الوحي على النبي المصطفى ﷺ، أراد الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يتهيأ لهذا الحدث العظيم - تلقي الوحي والرسالة -، فقبل ثلاث سنوات من البعثة بدأت مع رسوله ﷺ أمورٌ تهيئه لاستقبال الوحي والرسالة، وبدأ ذلك بالرؤيا الصالحة، والتي هي جزءٌ من أجزاء النبوة، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة**»[2]، ولم يبق من النبوة - بعد نبوته ﷺ - إلا المبشرات، كما عند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) رواه البخاري (٦٩٨٩)، ومسلم (٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

ﷺ يقول: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**»[1].

فكان عليه الصلاة والسلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان هذا تمهيداً من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ؛ وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها هذا الحديث العظيم، الذي نرويه اليوم، وهو يتحدث عن كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما[2] عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء» يعني الاختلاء وحده عليه الصلاة والسلام، والعزلة، وكان سبب ذلك ما ذكرناه في الخطب الماضية: من كراهيته ﷺ لأفعال الجاهلية التي تفشَّتْ في قومه والمجتمع حوله، ومنها: عبادة الأصنام، ووأد الإناث، وشرب الخمر، والزنا، والميسر، فصدَّته تلك الأفعال عن مخالطة قومه، ونفر مما كان يراه من قومه من الشرك والضلال والفساد، وقبل ذلك: تحبيب الله تعالى الخلوة لنبيه محمد ﷺ، فكانت الخلوة والعزلة أحبّ إلى قلب النبي ﷺ من أن يجلس مع

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠).

(٢) رواه البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢).

الناس، ويتسامر معهم، ويستأنس معهم، حَبَّب الله تعالى لنبيه ﷺ الخلوة تمهيداً لتنزّل الوحي والرسالة على قلبه الشريف.

تقول عائشة رضي الله عنها: «وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء»، ذلك الغار في جبل من أعالي جبال مكة، وذكر أهل السير أن من كان حاد النظر فإنه يستطيع أن يرى الكعبة المشرَّفة ويرى مكة من ذلك الغار، وهو غارٌ بعيدٌ عن ضوضاء مكة، وعمَّا كان فيها في ذلك الوقت من معصيةٍ وغفلة، فكان يجلس فيه النبي عليه الصلاة والسلام، كان يخلو في ذلك المكان ويتفكر ويتأمل في ملكوت الله تبارك وتعالى، كان ينظر ﷺ في الكون بنجومه وكواكبه وأرضه وسمائه، وكانت هذه العزلة والخلوة تمهيداً لتنزل الوحي عليه ﷺ.

كان النبي ﷺ يخرج عن قومه كما خرج موسى - عليه السلام - عن قومه إلى جبل الطور، ويخلو في ذلك المكان العالي الشامخ في الجبال، تقول عائشة رضي الله عنها: «فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله» أي: أنَّ النبي ﷺ كان يتعبَّد على ملة إبراهيم - عليه السلام -.

وهناك من كانوا يتعبدون على ملة إبراهيم في ذلك الوقت - برغم قِلَّتهم -، ومنهم: زيد بن عمرو بن نفيل، اعتزل الأوثان، وفارق الأديان من اليهودية،

والنصرانية، والملل كلها إلا دين إبراهيم - عليه السلام -، فكان يوحِّد الله عز وجل ويخلع من دونه، ولا يأكل ذبائح قومه، وكان إذا دخل الكعبة يقول: «لبيك حقاً حقاً، تَعبُّداً وَرِقّاً، عذت بما عاذ به إبراهيم»[1].

والشاهد هنا أن بقايا ملة إبراهيم - عليه السلام - وبقايا الفطرة السليمة كانت موجودة، والنبي ﷺ ظل على هذه الفطرة حتى أوحى الله سبحانه له بالإسلام، فكان ﷺ قبل الوحي يتعبد في غار حراء.

وفي قول عائشة رضي الله عنها: «فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد» دلالة على أنه ﷺ - ومن بداية أمره عليه الصلاة والسلام- كان

---

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١١٥، ١١٦) ، وقد روى الطبراني في «المعجم الكبير » (٣٥٠) عن سعيد بن زيد قال: خرج ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو يطلبان الدين، حتى مرا بالشام، فأما ورقة فتنصر، وأما زيد فقيل له: إن الذي تطلب أمامك، فانطلق حتى أتى الموصل، فإذا هو براهب، فقال: من أين أقبل صاحب المرحلة؟ قال: من بيت إبراهيم، قال: ما تطلب؟ قال: الدين، فعرض عليه النصرانية فأبى أن يقبل، وقال: لا حاجة لي فيه، قال: أما إن الذي تطلب سيظهر بأرضك، فأقبل وهو يقول: لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، البر أبغي لا الحال، وهل مهاجر كمن قال، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم، وأنفي لك اللهم عان راغم مهما تجشمني، فإني جاشم، ثم يخر فيسجد للكعبة. قال: فمر زيد بن عمرو بالنبي ﷺ، وزيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما، فدعياه، فقال: " يا ابن أخي، لا آكل مما ذبح على النصب، قال: فما رؤي النبي ﷺ يأكل مما ذبح على النصب من يومه ذلك حتى بعث، قال: وجاء سعيد بن زيد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن زيداً كان كما رأيت - أو كما بلغك - فاستغفر له قال: «نعم، فاستغفر له، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده». وقال الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (١٦١٧٩) : «فيه المسعودي وقد اختلط، وبقية رجاله ثقات» .

يقتصد في العبادة ولا يبالغ فيها، فليست خلوته دائمة ولا طويلة، وإنما ليالي معدودة، يتزوَّد لها بما يحتاجه من طعام وماء، فجاء دينه ديناً وسطاً، ليس فيه هلكة ولا مشقة ولا إرهاق على الإنسان.

وقبل أن يأتيه الوحي من السماء أراد الله تبارك وتعالى أن يهيئه تهيئةً أخرى، فبعد أن هيأه بالتحنث والتعبد في غار حراء قبل ثلاث سنين من البعثة، وهيأه قبلها بالرؤيا الصالحة ، جاءت تهيئة أخرى قبل بعثته بقليل، وهي أنه ﷺ عندما كان يمر ببعض الأحجار والأشجار فتسلّم عليه قبل البعثة؛ فعن جابر بن سمرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»[1]، وهذا أيضاً من التهيئة له عليه الصلاة والسلام، تسليم الحجر والشجر عليه بالنبوة.

تقول عائشة رضي الله عنها: «حتى جاءه الحق وهو في غار حراء» أي: ظل على هذا الحال حتى جاءه جبريل - عليه السلام - بالوحي وهو في غار حراء، وكان ذلك في يوم الاثنين، كما أخبرنا النبي ﷺ نفسه بذلك، فعندما سُئل ﷺ عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «**ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بُعثت - أو أُنزل علي فيه -**»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٧).

(٢) رواه مسلم (١١٦٢).

فكان يوم البعثة ويوم نزول الوحي أول ما نزل يوم الاثنين، وهذا يصادف ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان - على الأصح من أقوال أهل العلم - الموافق للعاشر من أغسطس عام ستمائة وعشرة من الميلاد(٦١٠م)، وكان عمره عليه الصلاة والسلام أربعين سنةً قمرية وستة أشهر، واثنا عشر يوماً[1].

فجاءه جبريل في غار حراء، وقال له: «اقرأ» فكانت أول كلمة من الوحي، فقال ﷺ والدهشة، والفزع، والخوف، والرُّعْبُ يملأ قلبه وكيانه، وهو في ذلك المكان النائي: «**ما أنا بقارئ**»، قال ﷺ: «**فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد**» - يعني: ضمَّني ضمةً شديدة حتى تعبت وأُرْهِقْتُ - **ثم أرسلني، فقال: «اقرأ»، قلت: «ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال:** ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣**﴾[2]».

وهنا بيَّن العلماء أن هناك حِكَماً مقصودةً من هذه الضمة الشديدة التي أتعبت رسول الله ﷺ، فمن هذه الحكم:

---

(١) انظر: «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري (ص ٥٦).

(٢) العلق: ١ - ٣، والحديث رواه البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢).

أولاً: ليشعر الرسول ﷺ أن الأمر يقظةً وحقيقةً، فليس ما يراه مناماً وأحلاماً، ولا أوهاماً.

وثانياً: ليستعدّ النبي ﷺ لتلقي الوحي، فيعلم أن الأمر جِدّ، وأن الوحي لا ينزل عليه بسهولة، وإنما فيه كلفة وشدة ومشقة، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ﴾[1]، وقد كان النبي ﷺ بعد ذلك كلما نزل عليه الوحي تصبَّب عرقاً من شدَّته عليه، ففي صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيَفْصِمُ عنِّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**»؛ قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً[2].

فبهذه الضمة الشديدة بدأت المسئولية والأمانة، وبدأ العمل والجهد والاجتهاد، حتى يبلِّغ النبي ﷺ رسالة ربه تبارك وتعالى.

---

(١) المزمل: ٥.

(٢) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣). ومعنى (**صلصلة الجرس**) صوت الحديد إذا حرك وتطلق على كل صوت له طنين، والمشبه هنا صوت الملك بالوحي، و(**فيفصم**) يقلع وأصل الفصم القطع من غير إبانة، و(**وعيت**) فهمت وحفظت، و(ليتفصَّد) يسيل من الفصد وهو قطع العرق لإسالة الدم، شبه الجبين بالعرق المفصود مبالغة من كثرة عرق.

وكانت بدايات الوحي بتلك الآيات المباركات من أول سورة العلق: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1]، هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن على أُمَّةٍ أُمِّيَّة، وعلى رسولٍ أُمِّي ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فأخرجها الله جل وعلا بهذا الإسلام، وهذا القرآن، من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فأصبح العرب والمسلمون بالإسلام أمة العلم، وكذب الجهلة الأفَّاكون الذين يتهمون الإسلام بأنه دين الجهل والتخلف!!، خابوا وخسروا، فكيف يكون الإسلام كذلك وأول تعاليمه وأولى آياته نزولاً: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فليست قراءة مطلقة، وليس علماً مجرداً بعيداً عن الدين والوحي؛ وإنما ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ إنه العلم المرتبط بالله تبارك وتعالى، إنه العلم الذي لا يخرج عن حدود الشرع، إنه العلم الذي لا يخرج عن الحدود التي حدها الله تبارك وتعالى لعباده المسلمين والمؤمنين.

العلم الذي أمرنا به ديننا، ليس هو العلم المنفلت الذي يعيشه الغرب الآن، ذلك العلم الذي ليس له حدود ولا ضوابط، والذي يقود الإنسان إلى صنع كل أنواع الهلاك والدمار، العلم الذي تعرَّى عن الوحي نتج عنه: صُنع

---

(١) سورة العلق: ١ – ٥.

أفتك الأسلحة وأشرسها، تلك التي تُدمِّر الإنسان وتهلك الحرث والنسل، بل وصل الأمر أن يعبث مدعو هذا العلم بالجينات الوراثية، ويحاولون استنساخ البشر!!، بعد أن عبثوا – من قبل – بالجينات الحيوانية والنباتية، وكان ثمرة ذلك: انتشار الأمراض والأوبئة وأنواع السرطانات التي لم نكن ندري عنها شيئاً من قبل – والعياذ بالله تعالى –.

أما العلم الذي أمر به الإسلام، وحث عليه رسول الإسلام، فهو العلم المرتبط بالسماء، المنضبط بضوابط الوحي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فأبرز صفات الله تبارك وتعالى هي الخلق، والإنسان إذا عرف أنه مخلوق من قِبل الله تبارك وتعالى عاد إلى الله ﷻ، فهو الذي خلقه وسواه.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أصل خلق الإنسان من الطين ثم من المني، ذكر الله تعالى الإنسان بذلك، ليتواضع ويذل لربه وخالقه، ألا فليتواضع المتكبرون والمتغطرسون، خاصةً في ذلك الزمان الذي كثر فيه الكبرياء والغطرسة، ولا ينسوا أصل خلقتهم من ذلك الماء المهين.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ فلا تيأس، واعلم أن رحمة الله كبيرة، وأن كرمه كبير.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ فلا يظن المغتر أن هذا العلم إنما جاء بذكائه، وتعلمه، والجامعات التي درس فيها، والأساتذة الكبار الذين تلقى عنهم، والكتب الكثيرة التي قرأها؛ كل ذلك لا شيء بجوار علم الله تبارك وتعالى، والله هو الذي علمك ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وبعد أن ألقى جبريل إلى النبي ﷺ هذه الآيات، تركه وانصرف، ورجع رسول الله ﷺ بهذه الآيات يرجف ويرتعد، يضطرب قلبه، ويهتز جسده، ويتصبب العرق من جبينه، ولم لا؟! والحدث عظيم جليل، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، تلك المرأة التي اختارها الله لرسوله ﷺ لهذا اليوم العظيم، فقال لخديجة «**زمِّلوني زمِّلوني**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**»[1] فقالت خديجة قولتها المشهورة، قولة امرأةٍ عاقلة لا تفكِّر بعواطفها فحسب كما هو حال كثير من نسائنا اليوم، وإنما تفكر بعقلها وقلبها، وتنظر إلى عواقب الأمور وتتأمل وتفكر وتحسن التصرف، قالت: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً» هي رأته، ورأت حياته، وعاشت معه، وشهدت بما رأت في حياته من الصدق وحسن التعامل، لو كان عليه الصلاة والسلام ليس أهلاً للنبوة، لكان أول

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢).

من يكفر به أهله، لأنهم يعرفون حقيقته، يعرفون دواخله وسرائره، قالت له رضي الله عنها: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1].

شهدت هذه الشهادة، وفيها تثبيت للرسول ﷺ ولقلبه، وهكذا ينبغي للمرأة المؤمنة أن تقف مع زوجها عندما تعتريه نوائب الدنيا ومشاكلها وهمومها، فتقف معه، ولا تتخلى عنه في أشد ما يكون محتاجاً إليها.

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بالمواساة الكلامية، بل انطلقت به حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى- يعني هذا الوحي، هذا جبريل الذي كان ينزل على موسى- عليه السلام - يا ليتني فيها جذعاً - شاباً قوياً-، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُم**»، قال: نعم، لم يأت رجل قط

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢).

بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

وقوله ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُم**» يدل على حب الوطن وعلى أن إخراج الإنسان من وطنه الذي ولد فيه وعاش فيه وترعرع فيه من أشق الأمور على نفسه.

نسأل الله أن يرحم المسلمين الذين أُخرجوا من أوطانهم وشُرِّدوا ولم يعلم بحالهم إلا الله تبارك وتعالى، ونسأل الله ﷻ أن يفرِّج عنهم وعن كل المسلمين المنكوبين المضطهدين في كل مكان، إنه على كل شيء قدير.

وفي قول ورقة :«لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي»[1] هذه المعاداة حاصلةٌ لكل داعٍ إلى الحق والعدل، وهي مستمرة إلى يومنا هذا، من بعض السفلة والجهلة الذين يتطاولون على رسولنا محمدٍ ﷺ؛ لأنه جاء بالحق، ولأنه جاء بالعدل، ولأنه جاء بالخير عليه الصلاة والسلام.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢).

تدرج نزول الوحي وبعض من آمن بالنبي ﷺ

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، توقف بنا الحديث في الجمعة الماضية في سيرة النبي المصطفى ﷺ عند نزول الوحي، وكيف نزل على نبينا محمدٍ ﷺ، وكيف استقبلته خديجة رضي الله عنها، فكانت الزوجة المؤمنة العاقلة التي صبَّرت وثبّتت زوجها على الحق، وكيف ساهم ورقة بن نوفل - أيضاً - في تثبيت النبي ﷺ.

بعد ذلك فتر الوحي – أي: انقطع لفترة يسيرة، قيل: أربعين يوماً –، فبعد أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، لم يأته جبريل - عليه السلام –، ولم ينزل عليه قرآن أربعين يوماً.

ولهذه الفترة حِكمٌ وفوائد، فمن حِكَمِها: إعطاء فرصةٍ حتى يسكن روع النبي ﷺ، فعندما رأى النبي ﷺ جبريلَ أصابه خوف ورعب، فانقطع عنه الوحي حتى يسكن هذا الرعب ويسكن هذا الخوف، ومنها: أن تتشوق نفس النبي ﷺ إلى نزول الوحي مرة أخرى، وأن تتطلع نفس النبي ﷺ إلى هذه الرسالة، وفيه تدرج، حتى لا يفاجأ عليه الصلاة والسلام بأمور الوحي دفعةً واحدة.

---

(١) سورة العلق: آية ١ .

واشتدَّ فتور الوحي على النبي ﷺ حتى كان يسير في بعض الأوقات خارج مكة كأنه هائم على وجهه، لا يدري أين يذهب، وقد حَزِنَ النبيُّ ﷺ لفتور الوحي حُزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك[1].

جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أنه قال وهو يحدث عن فترة الوحي، قال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض**-جاء على صورته الحقيقية- **فرعبت منه، فرجعت** – أي: إلى أهلي- **فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾**[2]**، فحمي الوحي وتتابع**»[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٨٢).

(٢) سورة المدثر: ١ – ٥.

(٣) رواه البخاري (٤).

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1] هو ثاني ما نزل من القرآن بعد ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[2].

وفي تلك الآيات إشعارٌ بالرسالة والنبوة، وأمرٌ بتبليغ هذه الرسالة إلى الناس جميعاً، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[3]، انتهى وقت النوم، انتهى وقت الراحة، من اليوم فصاعداً، بدأت رحلة جهد وتعب في تبليغ دين الله تعالى والدعوة والجهاد في سبيله، ثلاث وعشرين سنة ستأتي بعد تلك الآيات كلها جهاد وتعب واجتهاد، وقد بذل عليه الصلاة والسلام أقصى ما لديه من الجهد في تبليغ رسالة الإسلام، حتى وصل الإسلام اليوم إلى مشارق الأرض ومغاربها.

وكلمة ﴿قُمْ﴾ فيها الحركة، وفيها التكليف، وفيها الجهاد والجِدُّ والاجتهاد، فلا نوم بعد اليوم ﴿قُمْ﴾ وبلغ رسالة الله ودعوة الله ﴿فَأَنذِرْ﴾ بدأ بالإنذار؛ لأن الرسالة جِدّ وليست بالهزل، ولأنها حقٌ، ولأنها إخراج للناس من الظلمات إلى النور، ومن النار إلى الجنة، ومن الشرك إلى التوحيد

---

(١) المدثر: ١، ٢.

(٢) العلق: ١.

(٣) المدثر: ١، ٢.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فقد عمَّ الكفر، وعمَّ الظلم أرجاء الأرض، ليس في مكة وحدها، ولا في الجزيرة وحدها، بل في العالم كله، فقد بلغ الظلم مداه، وبلغ تعدي الأقوياء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، بلغ الذروة، فجاء هذا النبي ﷺ نصرةً للمظلومين وللضعفاء.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1] فالله سبحانه وتعالى أكبر من الأصنام والأوثان، وأكبر من كل شيء في هذا الكون، فكبر ربك حتى تتصاغر كل ما عظَّمته الجاهلية من الأصنام، ومن الأحساب والأنساب، ومن عاداتهم الجاهلية، كل شيء يتصاغر أمام تكبيرك ربك جل وعلا، فلا كبرياء إلا لله، وكل من تكبَّر فكبره زورٌ وكذب وبهتان وغرور وضحك على نفسه، والكبرياء الحقيقي الكامل لله جل وعلا.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2] وليس المقصود هنا بالثياب تلك الثياب الظاهرة فحسب، وإنما أيضاً المقصود بها الباطن والمستور تحت تلك الثياب، فطهر ثيابك، أي: استمر على ما كنت عليه من الطهارة، فدينك دين الطهارة الكاملة ظاهراً وباطناً، ليس في الظاهر فقط كما يظن بعض المسلمين، بل

---

(١) سورة المدثر: ٣.

(٢) سورة المدثر: ٤.

المسلم ينظف ظاهره بالثوب النظيف وباللباس الجميل، وبالنظافة في جسده الظاهري، كما ينظف قلبه ونفسه من أمراض القلوب والنفوس.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1] أي: استمر على هجران الأوثان، وقوله جل وعلا في تمام الآيات: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[2] يعني: ما قدمته من الخير ومن الدعوة ومن الجهاد ومن الإنفاق في سبيل الله تعالى، لا تمنن به على الله تبارك وتعالى، ولا تستكثر به على الله، فالله ﷻ هو صاحب الفضل الكبير، وهو الذي له المنُّ، فمهما عملت من عمل، فاسأل الله ﷻ أن يتقبله، ثم انسه، لا تقول: حججت كذا حجة، واعتمرت كذا عمرة، وأنفقت كذا وكذا، وعملت كذا وكذا، وإنما انس ما قدمته من عمل، واسأل الله القبول والأجر.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[3]؛ فالطريق طويلٌ وشاقٌ وكله مصاعب وآلام، طريق الدعوة كلها مشقات وصعوبات، فالصبر فيها واجب، وكل من سار على هديه ﷺ من الدعاة والعلماء والمسلمين عموماً يحتاج إلى الصبر والثبات على الحق والمنهج، ويستحيل أن تنجح دعوة بلا صبر، فلا بد للداعي إلى الله أن يصبر وأن يحتسب وأن يجاهد ويجتهد حتى يبلغ دعوة الله تبارك وتعالى.

---

(١) سورة المدثر: ٥.

(٢) سورة المدثر: ٦.

(٣) سورة المدثر: ٧.

ولما نزلت تلك الآيات على النبي ﷺ، كان أول من آمن به زوجته خديجة رضي الله عنها وأرضاها[1]، فأول من أسلم ودخل في دين النبي محمد ﷺ امرأة، وهذا فيه تكريم للمرأة وإبراز لمكانتها، وإبراز لدورها، فمن يتهمون الإسلام - زوراً وبهتاناً - بأنه ضيَّع حقوقَ المرأة، وأنه لم يحترم المرأة، وأنه ظلم المرأة وأهانها، إلى غير ذلك من الترهات ومن الأكاذيب والأباطيل، نقول لهم: كذبتم، لقد كانت المرأة مصونة مكرمة منذ بدايات الإسلام، فأول من أسلم وثبَّتَ الرسولَ ﷺ : خديجةُ رضي الله عنها، أسلمت وآمنت، وكيف لا تسارع بالإسلام قبل الآخرين، وقد رأتْ من أخلاق النبي ﷺ العالية، وشمائله الشريفة، ما يدعوها إلى اعتناق هذا الدين بلا أيِّ تردد.

ولله تعالى حكمة في أن تكون أول من آمن ودخل الإسلام امرأة، فالمرأة شقيقة الرجل كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2]، وقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ

(١) انظر: «الروض الأنف» (٢/ ٢٧٣).

(٢) سورة البقرة: ٢٢٨ .

﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**النساء شقائق الرجال**»[2].

ثم بعد أن أسلمتْ أُمُّنا خديجة رضي الله عنها، أسلم علي بن أبي طالبٍ ﷺ، فهو أول من أسلم من الصبيان[3]، وكان عمره عشر سنوات، أي :لم يبلغ الحلم بعد، فقد أخذه النبي ﷺ من عمه أبي طالب، وكان أبو طالب كثير العيال فقيراً، فأخذ العباس جعفر وضمه إليه، وأخذ محمدٌ ﷺ علياً فضمه إليه، تخفيفاً عن عمه في مصاريف بيته، وهكذا تكون صلة الأرحام، وهذا في الجاهلية قبل الإسلام، فكيف يكون الأمر بعد الإسلام؟!.

ويؤخذ من هذا: أهمية التراحم بين المسلمين، وخاصة بين أولي الأرحام منهم، أن يرحم القريب قريبه، وأن يحسن إليه، وأن يتعاون الأهل والمسلمون جميعاً على البر والتقوى، فـ «**الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله**»[4].

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، والترمذي (١١٣)، وقال محققو المسند (٤٣/ ٢٦٥): «حديث حسن لغيره».

(٣) انظر: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» لابن سيد الناس (١/ ١١١).

(٤) رواه مسلم (٢٥٥٥).

فأين هي الرحم اليوم؟!، أين الرحم ممن يأخذ الأموال ظلماً من إخوانه أو أعمامه أو أخواله فيضمها إلى ماله؟! وأين الرحم ممن ينفق على الفقراء والمساكين الذين لا يعرفهم، ويترك أقاربه الفقراء والمحتاجين؟! هذا موجود!!.

فما أحرانا أن نقتدي برسولنا ﷺ في صلته لرحمه وبره بهم، النبي ﷺ ضم علياً رضي الله عنه إليه ليكفله ويرعاه، فلما جاءه التكليف بالنبوة والرسالة دعاه إلى الإسلام، ولم يقل ﷺ: إنه صغير، وطفل، اتركه حتى يكبر!!، وإنما دعاه للإسلام، وهذا يدل على عناية الإسلام بالأطفال الصغار، الرسول ﷺ بذلك نبه على قيمة الطفل، ومكانة الطفل، عامله ﷺ كما يعامل الكبار، فدعاه إلى الإسلام قبل أن يبلغ، فمن مِنَّا يُعامل الصغار اليوم كالكبار.

وهذه مدارس الغرب اليوم يتعامل فيها المعلمون والمربُّون مع الصغار كما يتعاملون مع الكبار، ولا يتركون كلمةً تصدر من فم ذلك الطفل إلا ناقشوها وبينوها ووضحوها، نقول هذا ونحن نتأسف على واقع الطفل المسلم في ديار الإسلام، إلا من رحم الله تعالى.

فالغالبية يتعاملون مع الأطفال الصغار بكل ازدراء واستخفاف، كأنهم لا شيء!!، وكأنهم لا يفهمون ولا يفقهون!!، فلا يلتفت إليهم أحد، ولا ينظر إليهم أحد، ولا يتناقش معهم أحد، وهذا ليس من أخلاق الإسلام،

وليس من هدي النبي ﷺ، فمن أوائل من أسلم واتبع النبي ﷺ امرأة وهي خديجة رضي الله عنها، وطفل وهو علي ﷺ، وكان عمره عشر سنوات.

وأول من أسلم من الرجال هو أبو بكر الصديق ﷺ وأرضاه[1]، وكان اسمه عتيق، وأبوه اسمه عثمان، فهو عتيق بن عثمان، فسماه النبي ﷺ بالصديق، يقول عليه الصلاة والسلام : «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كان له فيه مرجوعٌ وتردد إلا أبا بكر فإنه حين كلمته بالإسلام ما عَتَّم أن أسلم**»[2]. أي أنه ﷺ أسلم فوراً بلا تردد ولا تفكير، وهذ يدل على صفاء هذه النفس وطهارتها، وعلى عقليته الراجحة وحكمته البالغة، ويدل على ما رآه أبو بكر ﷺ من النبي ﷺ من الأخلاق الكريمة، ومن التعامل الراقي، والصفات الرائعة، حتى صدَّقه مباشرة، وآمن به فور أن دعاه إلى الإسلام.

وكان أبو بكر ﷺ من التجار ومن الوجهاء، وهذا يدل على كذب وتدليس بعض المستشرقين الذين زعموا أن لم يسلم مع الرسول ﷺ في مكة إلا الضعفاء والفقراء، فهذا أبو بكر ﷺ وهو من تجار مكة ووجهائها أول من يدخل الإسلام من الرجال، بل أسلم من الوجهاء والأغنياء والأثرياء

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٤٩)، و«عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» لابن سيد الناس (١/ ١١٣).

(٢) رواه ابن بطة في«الإبانة الكبرى» (٩/ ٤٥٧) (١٠٠)، وانظر أيضاً: «السير والمغازي» لابن إسحاق (ص ١٣٩)، ومعنى«ما عَتَّم» أي: ما أطرق وفكر، ولا قال: لم، وكيف؟.

وأصحاب الأحساب والأنساب بعد ذلك الكثير والكثير، وقد ارتفع بهم شأن الإسلام كما سنرى بعد قليل.

وأول أسلم من الموالي والعبيد: زيد بن حارثة ﷺ، وكان زيد بن حارثة قد سبي في الجاهلية واشتراه حكيم بن حزام، ثم أهداه إلى عمته خديجة بنت خويلد، فأهدته للنبي ﷺ عبداً له، فعرف أبوه بعد فترة أن ابنه زيد عند محمد ﷺ - وهذا كله قبل الإسلام، وقبل البعثة - فجاء حارثة أبو زيد إلى النبي ﷺ في مكة ليفدي ولده، فجاء ومعه عمه كعب - عمُّ زيد - حتى وقفا على رسول الله ﷺ، فقالا له: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، وتفكُّون العاني، وتُطعِمُون الجائع، وقد جئناكم في ابننا عبدك، لتحسن إلينا في فدائه، فقال: «**أوَ غير ذلك؟**» فقالا: وما هو؟ فقال: «**أدعوه وأخيّره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارني فو الله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً**» ، فقالا له: قد زدتَ على النَّصَف – أي: الانتصاف والعدل –، فدعاه رسول الله ﷺ، فلما جاء قال: «**من هذان؟**» فقال: هذا أبي حارثة بن شراحيل، وهذا عمي كعب بن شراحيل، فقال: «**قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمت معي**»، فقال: بل أقيم معك، فقال له أبوه: «يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فقال: إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي أفارقه أبداً. فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده وقام به إلى الملإ من قريش، فقال:

«**اشهدوا أن هذا ابني، وارثاً وموروثاً**»، فطابت نفس أبيه عند ذلك، وكان يدعى: زيد بن محمد حتى أنزل الله تعالى: ﴿ **ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ** ﴾[1]» [2].

وهذا التبني كان في الجاهلية قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام ألغاه وحرمه، فبعد أن كان زيد يُسمَّى: (زيد بن محمد)، رجع بعد تحريم التبني إلى اسمه الطبيعي: (زيد بن حارثة) والشاهد، أن أول من أسلم من الموالي هو زيد ﷺ.

هذه الكوكبة المباركة التي عشنا معها اليوم، هي الفئة الأولى التي أسلمت ودانت لله تعالى بهذا الدين، هي النواة الأولى للإسلام في مكة.

والعجيب في إسلام أبي بكر ﷺ، أنه لم ينتظر بعد إسلامه بلا دعوة ولا حراك لدعم هذا الدين، بل تحرك فوراً وذهب إلى أصدقائه ومعارفه يدعوهم إلى الله تعالى وإلى الإسلام، وهكذا تكون الصداقة في الخير، والمصاحبة على الحق، عندما ترى خيراً تتذكر أصدقاءك وتكرمهم بهذا الخير، وتهدي لهم هذا الخير، فذهب إلى: (عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله) والخمسة من العشرة

---

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٤٨)، و«الروض الأنف» (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

المبشرين بالجنة، والخمسة من كبار رجالات أهل مكة، ولما ذهب لهم أبو بكر ودعاهم إلى الإسلام أسلموا جميعاً، فجاء بهم إلى النبي ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصلّوا[1].

لقد كان هؤلاء الأبرار الأخيار من السابقين الأولين الذين تباركوا برسالة الإسلام، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وها هم المسلمون اليوم بعد مرور (١٤٢٧هـ)[2] أكثر من مليار وخمسمائة مليون مسلم، نسأل الله تبارك وتعالى أن يأجرأصحاب النبي ﷺ والسابقين إلى الإسلام منهم عنَّا وعن المسلمين كل خير، وأن يجمعنا بهم مع نبينا محمد ﷺ في الفردوس الأعلى، إنه على كل شيءٍ قدير وبالإجابة جدير.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٥٠- ٢٥٢) و«عيون الأثر» (١/ ١١٣).

(٢) وقت إلقاء هذه الخطبة فقد كانت في عام ١٤٢٧هـ.

الدعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، كنا قد توقف بنا الحديث عند الرعيل الأول، السابقين الأولين الذين أسلموا مع رسول الله ﷺ أول الأمر، خديجة رضي الله عنها، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وزيد بن حارثة، رضي الله عنهم جميعاً، وذكرنا أنه أسلم على يد أبي بكر الصديق ﷺ: عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم جميعاً.

ومعظم أولئك الذين أسلموا، كانوا شباباً، كانوا صغاراً في السِّنِّ، فالزبير بن العوام ﷺ كان عمره عندما أسلم ست عشرة سنة، وسعد بن أبي وقاص ﷺ كان عمره سبع عشرة سنة، وطلحة بن عبيد الله ﷺ كان عمره ثلاث عشرة سنة، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ كان عمره ثلاثين سنة، وعثمان ﷺ كان عمره أربعاً وثلاثين سنة، وأبو بكر الصديق ﷺ كان عمره سبعاً وثلاثين سنة، وعلي بن أبي طالب ﷺ كان له من العمر عشر سنوات، فكان أصغرهم، وزيد بن حارثة لم يبلغ الحلم، وكان أكبر هؤلاء جميعاً خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فرسول الله ﷺ لما بعث كان عمره أربعين سنة،

وخديجة رضي الله عنها أكبر منه بخمس عشـرة سنة، فكان عمرها خمساً وخمسين سنة[1].

وما تقدم يدل على أن أكثر من آمن بالنبي ﷺ كانوا شباباً، صغاراً في السن، مما يدلل على أن مرحلة الشباب من أعظم المراحل وأهمها في حياة الإنسان، فهي مرحلة القوة، ومرحلة الإيمان، ومرحلة العلم، ومرحلة التدين الصادق القوي، إذا وُجِّه الشاب الوجهة الصيحة الطيبة، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾[2]، والملأ: هم الكبار وعلية القوم، والذرية: الفتيان والشباب الصغار.

وهذا يدعونا لتوجيه رسالة للعناية بالشباب، فمرحلة الشباب من أهم وأخطر مراحل العمر وأقواها، وهي - في الغالب – التي تحدد مسار المرء في حياته، ومدى نجاحه فيها أو فشله، فالواجب على المسئولين والمربين والمعلمين أن يعتنوا بالشباب، ففيهم من الطاقات والخير والإيمان الشيء الكثير.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٠)، و(١/ ٢٤٥- ٢٥٠).

(٢) يونس: ٨٣ .

لقد كان أولئك الصحابة الكرام الذين أسلموا في صدر الإسلام – رضي الله عنهم - الدفعة الأولى من أهل الإسلام في هذه الأمة، ثم جاءت دفعة ثانية، ثم ثالثة، فرابعة، وتتابع الناس في الدخول في الإسلام من شتى القبائل، من مكة ومن خارجها، بل حتى من غير العرب، فلم يكن الإسلام خاصاً بأهل مكة، ولم يكن خاصاً ببني هاشم، أو بالعرب وحدهم، وإنما جاء الإسلام للبشرية جميعاً.

وقد مثَّل المسلمون في الصدر الأول قبائل الجزيرة العربية كلها، شمالها وجنوبها، وشرقها وغربها ووسطها، فممن أسلموا: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد القرشي، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون – أخو النبي ﷺ من الرضاع –، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وزوجته فاطمة بنت الخطاب – أخت عمر ابن الخطاب، التي أسلم عمر على يدها –، وأسماء، وعائشة – بنتا أبي بكر الصديق –، وقدامة بن مظعون، وعبد الله بن مظعون الجمحيان، وخباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وعمير بن أبي وقاص، ومسعود بن القاري، إضافةً إلى بنات النبي ﷺ، فاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وزينب؛ فقد أسلمن مُبكِّراً مع النبيِّ ﷺ، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وجعفر بن أبي

طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وبلال بن أبي رباح – من الحبشة –، وصهيب الرومي – من الروم –، وآخرون[1].

وهذا يدلنا على أن الإسلام ليس خاصاً بالعرب، ولا خاصاً بقريش، ولا خاصاً بأهل مكة، وإنما هو دين عامٌ شاملٌ لكل زمان ومكان، ولكل جنس ولون، وهو خاتم الأديان والرسالات، وقد قال الله جل وعلا: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3].

وعن ابن إسحاق قال: حدثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على الرسول ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز بعقبه في ناحية الوادي فانفجرتْ منه عينٌ، فتوضأ جبريل والنبي ﷺ ينظر إليه، ثم توضأ النبي ﷺ كما توضأ جبريل – عليه السلام –، ثم قام جبريل وصلَّى فصلَّى بصلاته النبي ﷺ، فتعلم النبي ﷺ منه الصلاة والوضوء ، ثم عاد النبي ﷺ إلى خديجة رضي الله عنها وأرضاها فعلمها الوضوء والصلاة[4].

---

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٤٣).

(٢) سبأ: ٢٨ .

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٣٦)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٤).

وذكر أهل العلم أن أول ما فُرِضَتْ الصلاة كانت ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، ثم لما أُسري بالنبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج فرض الله ﷻ عليه خمس صلوات في اليوم والليلة[1].

قال ابن إسحق: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب، واستخفوا بصلاتهم عن قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، واقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجه، فكان أول دم أُهريق في الإسلام[2].

وعندما علم النبي ﷺ بذلك، والدعوة لا زالت في أولها، أمر أصحابه ﷺ أن يجتمعوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم يتخفون فيها، فيعلمهم أمور دينهم ويصلون ويعبدون الله تبارك وتعالى، فبدأت مرحلة دار الأرقم بن أبي الأرقم هذا الصحابي الجليل الذي جعل الإسلام اسمه على لسان الأمة، يفتخرون

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣٤٩) (١/ ٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٩) (١/ ١٤٥).

(٢) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٤٧)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٢٦٣).

أن أول حلقة علم، بل أول مدرسة وجامعة، علم فيها النبي ﷺ أصحابه، كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه[1].

ولماذا اختار النبي ﷺ دار الأرقم؟، ولماذا لم يختر بيت خديجة، ولا بيت أبي بكر، ولا بيت عثمان؟، ذكر أهل العلم لذلك أسباباً، من ابرزها:

١- أن الأرقم رضي الله عنه لم يكن معروفاً في الإسلام، فعلى الرغم من سرية الدعوة إلا أن أهل مكة تسامعوا بإسلام أبي بكر وخديجة ونحوهم من كبار الصحابة رضوان الله عليهم، فضلاً عن أن أولئك الكبار معروفون والأعين عليهم، فيكون الاجتماع عندهم واضحاً مكشوفاً، بخلاف الأرقم، فإنه لما أسلم لم يُعْرَفْ إسلامه، فكان اختيار بيته مناسباً، لأنه لا يلفت الأنظار.

٢- من أسباب الاختيار أيضاً: أن الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم، وبنو مخزوم هم الذين ناصبوا بني هاشم العداء في الحروب والمنافسات، فلا يخطر على بال أحد أن يذهب محمد ﷺ بدعوته إلى بيت رجل من قبائل تعادي قبيلته.

٣- أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى صغيراً، فقد كان عمره ست عشرة سنة، فلم يكن يخطر على بال أحد أن يكون بيت هذا الفتى الصغير مدرسةً للإسلام، يجتمع فيها النبي ﷺ بأصحابه.

---

(١) انظر: «السِّيرةُ النّبوية، عرضُ وقائع وتحليل أحدَاث» للصلابي (ص ٩٥).

وكانت هذه الاجتماعات في دار الأرقم تتم في سرية تامة، بحيث لا يعرف بهم أحد من قريش، ولم يُعلم في تاريخ السيرة أن أحداً خلال فترة دعوة النبي ﷺ في بيت الأرقم – وهي ثلاث سنوات، كما جاء في بعض الروايات – عرف أن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون ويتدارسون الإسلام في ذلك البيت المبارك.

وتلك الكوكبة المباركة التي كانت مع النبي ﷺ في دار الأرقم ﷺ، كوكبة محظوظة، وكوكبة مباركة، لأنها كانت قليلة العدد، وتجلس فترات طويلة بين يدي الرسول ﷺ، لا يفصل بينها وبينه شيء، ولا يزاحمها معه كثرة عدد ولا شواغل وصوارف الدنيا، فكان لقُرب الرسول ﷺ من هذه الكوكبة أبلغ الأثر في نفوسهم.

ولم يكن النبي ﷺ يتدارس معهم في دار الأرقم شيئاً إلا القرآن، وكان القرآن في تلك الفترة يركز على العقيدة، ويركز على الإيمان بالله واليوم الآخر، فكان تركيز القرآن على هذه المعاني العظيمة، وعلى الصبر، ليهيئ هذه الكوكبة المؤمنة لتتحمل ما ستلاقيه بعد ذلك من البلاء الشديد، عندما يجاهر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله ﷻ، وكان من الآيات التي نزلت في ذلك الوقت قوله ﷻ:

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1]، فكانت توجيهاً عظيماً، بدأت بالصبر ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ليستقر الصبر في نفوس أولئك الصحابة الكرام، فإنهم سيلقون من الشدائد والأهوال الشيء الكثير، عندما يجاهر النبي ﷺ بالدعوة.

ثم قال سبحانه: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ فكان الدعاء من أعظم العبادات التي تعبَّد اللهَ بها أولئك النفرُ الأوائل، ليس لهم إلا القرآن والدعاء، يدعون الله تبارك وتعالى ويسألونه من خيري الدنيا والآخرة، والدعاء سلاح المؤمن، لاسيما وقت الشدائد والأزمات.

وقوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إشارة للإخلاص، ولقد كان الإخلاص من أبرز سمات الكوكبة المؤمنة في ذلك الوقت، ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهذا درس في الثبات على طاعة الله تبارك وتعالى، ودرس في الاستمرار والصبر على مراد الله ﷻ.

وهكذا كانت حلقة الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ، هي مدرسة النبوة الأولى، تلك المدرسة المباركة التي اجتمع فيها هؤلاء النفر الأوائل المباركون - رضوان الله تعالى عليهم- برسول الله ﷺ، فأخذوا منه الإسلام والدين غضاً طرياً، فتخرجوا من هذه المدرسة، وهم يحملون رسالة الإسلام على أكتافهم، ولقد

---

(١) الكهف: ٢٨ .

انتشر الإسلام وامتد في ربوع الدنيا، بفضل الله جل وعلا، ثم بفضل أولئك الأبطال الشجعان الذين كانوا مع النبي ﷺ في صدر الإسلام، وقد ثبتوا أشد الثبات رغم الشدائد والأهوال التي تعرَّضوا لها مع النبي ﷺ، عندما جاهر بدعوته صلوات ربي وسلامه عليه.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



دعوة العشيرة الأقربين

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نتابع اليوم بإذن الله تبارك وتعالى الحديث في سيرة النبي المصطفى ﷺ، ونستخلص دروسها وعبرها، فنأخذ منها الأسوة والقدوة، لنستضيء بها في حياتنا الدنيا، وقد وقف بنا الحديث عند الدعوة السرية التي كانت في مكة، ودار الأرقم، والصحابة الأوائل الذين أسلموا سرًّا مع رسول الله ﷺ.

ثم بد ذلك أذن الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بالإعلان عن دعوة الإسلام، ونزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وهذه الآيات وردت في سورة الشعراء، وسورة الشعراء -كما هو معلوم - ابتدأت بالحديث عن قصة موسى - عليه السلام -، وكيف أن الله تعالى أرسله إلى فرعون يدعوه إلى توحيد الله تبارك وتعالى وإفراده بالعبادة، وهذا فيه تثبيت للنبي ﷺ ، عندما يدعو قومه ويواجه ما يواجه من شدة ورفض وعنت، فقد سبقه في هذا الطريق أنبياء كثر، ومنهم نبي الله موسى - عليه السلام -، عندما

(١) الشعراء: ٢١٣ – ٢١٦.

أرسل إلى الطاغية العاتي فرعون بجبروته وسلطانه، كما بينت سورة الشعراء ما تعرَّض له موسى ﷺ وقومه من الإيذاء، وكيف كانت العاقبة لهم في النهاية، فنصرهم الله تبارك وتعالى وأهلك فرعون وجنده بالغرق في البحر.

وفي سورة الشعراء قصص لعدد من الأنبياء مع أقوامهم، وكيف أهلك الله تبارك وتعالى من كذبوا المرسلين، ورفضوا دعوتهم ولم يؤمنوا بهم، وهذا فيه تسليةٌ للمؤمنين مع النبي ﷺ وتثبيت لهم، بأن الله سينصر رسوله ﷺ، فما عليهم إلا الثبات وتحقيق العبودية الحقة لله جل وعلا، وفيه إنذار للمشركين من قريش وغيرهم، أنهم إن لم يؤمنوا فإن عاقبتهم كعاقبة أولئك المكذبين لرسلهم ولأنبيائهم، فكان في هذه السورة تثبيت وإرشاد وتوجيه للنبي ﷺ لطريق الدعوة والجهر بها والصبر عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، أي: ابدأ بعشيرتك وقومك من أهل مكة، لأن مكة وأهلها محطّ أنظار جزيرة العرب، والقبائل كلها، فإن أسلمت مكة أسلم بإسلامها كل القبائل، فكان لا بد أن تكون بداية الدعوة منها، ومن أقرب الأقربين للنبي ﷺ.

وهذا يبين مدى التخطيط الذي دل الله ﷻ عليه رسوله ﷺ في دعوته للإسلام، فقد بدأت دعوته سراً، ثم كان الاجتماع للتعليم والتربية والإرشاد

(١) الشعراء: ٢١٤.

في دار الأرقم سراً أيضاً، ثم جاءت مرحلة إعلان الدعوة والصبر على الأذى، ثم الجهاد ومحاربة أعداء هذه الدعوة وكف شرهم وأذاهم عن المسلمين.

هكذا كانت الدعوة، بالتخطيط والتدريج، شيئاً فشيئاً، وهذا دليل على عظمة هذا الدين.

يروى[1] أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2] بعث إلى بني عبد المطلب فحضروا ومعهم عدة من بني عبد مناف وجميعهم خمسة وأربعون رجلاً، وسارع إليه أبو لهب وهو يظن أنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبّون، فلما اجتمعوا قال أبو لهب: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلَّم بما تريد ودع عنك الصبأة[3]، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وإن أحبّ من أخذك فحبسك أسرتك وبنو أبيك، إن أقمت على

(١) انظر في ذلك : «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» لمحمد بن يوسف الشامي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١(٢/ ٣٢٢، ٣٢٣) .

(٢) الشعراء: ٢١٤.

(٣) جمع صابئ، وهو المرتد عن دينه، يريد من آمنوا مع النبي ﷺ، وكانوا إذ ذاك أربعين نفراً، يريد منه أن يتركهم، ويترك دعوته، ويبقى على دين أهله وعشيرته وقومه.

أمرك، فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدّها العرب، فما رأيت يا ابن أخي أحداً قط جاء بني أبيه[1] وقومه بشرّ مما جئتهم به[2].

فأسْكَتَ رسولَ الله ﷺ فلم يتكلم في ذلك المجلس، ومكث أياماً، وكثر عليه كلام أبي لهب، فنزل عليه جبريل - عليه السلام - فأمره بإمضاء ما أمره الله به وشجّعه عليه، فجمعهم رسول الله ﷺ مرة ثانية فقال: «**الحمد الله أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» ثم قال: «**إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، ولتجزونّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً، وإنكم لأول من أنذر، ومثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف يا صباحاه**». فقال أبو طالب: ما أحبّ إلينا معاونتك ومرافدتك وأقبلنا

---

(١) يعني: بني جده، أطلق على جده أنه أبوه؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام تربَّى في كنف جَدِّه عبد المطلب، فقد توفي والده ﷺ وهو حملٌ في بطن أمه .

(٢) انظر لتلك المقاطعة السيئة من أبي لهب، فالنبي ﷺ دعاهم في بيته، يريد أن يتحدث معهم، وإذا بأبي لهب يبادر ويتكلم بهذا السخط وهذا الإيذاء وهذا التطاول على رسول الله ﷺ، فسكت رسول الله ﷺ في تلك المرة، لكنه دعاهم مرة أخرى، ولم ييأس من دعوتهم، كما سيأتي.

لنصحك وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم، غير أني والله أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أُمِرتَ به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أني لا أجد نفسي تطوّع إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه[1].

وتكلم القوم كلاماً ليّنا غير أبي لهب فإنه قال: يا بني عبد المطلب هذه والله السّوءة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قُتِلْتُم. فقال أبو طالب: «واللهَّ لنمنعنّه ما بقينا»[2].

وهذا من ترتيب رب العالمين، ومن حكمة رب العالمين، أن سخر له عمه أبا طالب، والذي أمره أبوه عبد المطلب بأن يرعى محمداً عليه الصلاة والسلام، فأخذ بتنفيذ هذه الوصية، ودافع عن النبي ﷺ وحماه، رغم أنه لم يكن مؤمناً ولا مسلماً.

وبعد هذه الجلسة وذلك التعهد بحماية النبي ﷺ من عمه أبي طالب، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» - لبطون

---

(١) وكان في هذا حكمة وأي حكمةٍ من الله تبارك وتعالى، فلو آمن أبو طالب لوثب عليه مشركو مكة، ورفضوا وصايته وحمايته للنبي ﷺ، وآذوه كما آذوا غيره، ولكنه لما بقي على عبادة الأوثان معهم وهو سيدهم، هابوه واحترموه، فأصبح حمايةً للنبي عليه الصلاة والسلام إلى أن مات.

(٢) انظر: «سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد» (٢/ ٣٢٢، ٣٢٣)، و«السيرة الحلبية؛ إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» لعلي الحلبي (١/ ٤٠٥).

قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش، فقال ﷺ: «**أرأيْتَكُمْ لو أخبرتُكُم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغِيرَ عليكم، أكنتم مُصَدِّقي؟**»[1] قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صِدْقاً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد**» فقال أبو لهب: تباً لكَ سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ**﴾[2].

---

(١) بهذه البداية الرائعة، ابتدأ النبي ﷺ خطابه، بدأهم بأمر محسوس من أمور الدنيا؛ ليأخذ منهم الإقرار بلسانهم بما يعلمونه من صدقه ﷺ وأمانته، وأنهم ما جرَّبوا عليه في حياته كلها كذباً ولا خيانةً، فقالوا: «ما جربنا عليك إلا صدقاً»، وانتقل ﷺ بعدها مباشرة إلى مقصوده: «فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد».

(٢) المسد: ١ - ٢، والحديث رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) عن ابن عباس ﷺ. ورواه البخاري في (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٦) أيضاً عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: «**يا معشر قريش** - أو كلمة نحوها - **اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً**». كانوا من قبل يتناصرون بالقبلية والعصبية والأهل والعشيرة، فجاءهم النبي ﷺ بشيءٍ جديد، إنه الإيمان بالله تبارك وتعالى الذي قطع الصلة مع كل كافر - ولو كان قريباً -، ولو كان ما كان، فلا يغني النبي ﷺ عن أهله وعشيرته، بل ولا عن ابنته - التي هي أقرب الناس إليه - شيئاً من الله تعالى إن هي خالفت أمره وعصته.

وبعد أن بدأ النبي ﷺ بالجهر بالدعوة، جاء وفد من قريش – كما ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره – إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءَنا، فإمَّا أن تَكُفَّه عنَّا، وإما أن تُخَلِّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكْفِيكَه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردَّهم ردَّاً جميلاً، فانصرفوا عنه[1].

وكانت هذه أول زيارة يزورونه ويفاوضونه في أمر النبي ﷺ، فردَّهم رداً جميلاً ، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظهِرُ دينَ الله تعالى ويدعو إليه.

ولما اقترب موسم الحج، وقبائل العرب تأتي تباعاً لمكة، اجتمع الوليد بن المغيرة مع نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيُكَذِّبُ بعضُكُم بعضاً، ويردُّ قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بِزَمْزَمَةِ[2] الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بِخَنْقِهِ، وَلَا

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٤٨)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٢٥٦).

(٢) الزمزمة: الكلام الخفي الذي لا يسمع.

تَخَالُجِهِ، وَلَا وَسْوَسَتِهِ، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِحْرَهم، فما هو بنفْثِهم ولا عُقَدِهم[1]، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق[2]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطلٌ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحرٌ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره.

فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وفي ذلك الموقف قوله ل وعلا: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ

---

(١) إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤] يعنى الساحرات.

(٢) العذق (بالفتح): النخلة، يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى، وهذه شهادة حق خرجت من فم كافر وعدو في حق القرآن العظيم.

وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[1].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) المدثر: ١١- ٣٠، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٧٠، ٢٧١)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٢٣٢).

الإيذاء الشديد لضعفة المسلمين

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا نتأمل في سيرة النبي المصطفى ﷺ، وكنا قد تحدثنا عن الجهر بدعوة الإسلام، وكيف بدأ الجهر بالدعوة بعد مرور ثلاث سنوات من الإسرار بها، وكيف استقبل مشركو مكة خبر الجهر والإعلان الصريح عن دعوة الإسلام، وكيف أنهم بدؤوا في تشويه سمعته عليه الصلاة والسلام، وسمعة دين الإسلام، وفي الضغط على عمه أبي طالب ليسلمه لهم، وليقضوا على دعوته في مهدها.

بعد ذلك بدأت مرحلة جديدة، هي مرحلة الإيذاء والابتلاء والضغط الشديد على الفئة المؤمنة القليلة، من الفئة الكافرة الكثيرة التي كانت تحيط بهم، وأول ما عذبوا، عذبوا ونكلوا بالضعفاء، ولم يسلم أيضاً الأغنياء، ومنهم أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، ومصعب بن عمير، وغيرهم - رضوان الله عليهم جميعاً-، بل حتى رسول الهدى ﷺ لم يسلم من هذا الإيذاء الشديد، وسنفرد لما تعرض له النبي ﷺ من الأذى خطبة كاملة، إن شاء الله تبارك وتعالى.

واليوم نتحدث عن هؤلاء الضعفاء الذين لم يكن لهم بمكة أحد إلا الله تبارك وتعالى، وهذا فيه إشارة إلى أن كفار قريش لم يحترموا الإنسانية، ولم

يعيروها أي اهتمام، وإنما كان تقديرهم للحسب والنسب والقوة، وأما الضعفاء من العبيد والموالي الذين ليس لهم أنصار وأعوان فقد كانوا فريسةً سهلة لذلك الطغيان، وذلك الفساد والظلم الذي كان موجوداً في صناديد قريش، وسنذكر بعض نماذج التعذيب والاضطهاد التي مارسها الكفار ضد ضعفاء المسلمين، لتتضح لنا الصورة، ولنعرف حجم المعاناة التي عاناها أصحاب النبي ﷺ حتى وصل لنا هذا الدين.

فمن هؤلاء الذين تعرَّضوا للأذى والاضطهاد: أسرة بكاملها، وهي أسرة عمَّار بن ياسر، فقد أوذي عمَّار، وأوذي أبوه ياسر، وأوذيت أُمُّه سمية، وعذبوا حتى مات الأب، وحتى ماتت الأم تحت التعذيب الشديد - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- .

وياسر- أبو عمَّار- من قبيلة عنس من اليمن، جاء إلى مكة مع إخوانه يبحث عن أخٍ له في مكة، فعاد إخوانه وبقي هو في مكة، فكان مولى لبني مخزوم – أي إنه تحت حمايتهم ورعايتهم -، ليس له قبيلة في مكة، ولا نسب، وإنما كان تبعاً لبني مخزوم، فلما أسلم أذاقه بنو مخزوم أشدَّ العذاب.

قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء[1] مكة، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول، فيما بلغني: «**صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة**»[2].

لم يكن النبي ﷺ يملك من القوة ولا من المنعة ما يستطيع به أن ينقذ أولئك الضعفاء، فكان يبشرهم بالجنة، ويثبتهم ويصبرهم بقوله عليه الصلاة والسلام: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»، هكذا كان ينزل على قلوبهم الصبر والتثبيت، ولو كان يملك عليه الصلاة والسلام من المال لاشتراهم وأعتقهم، ولو كان يملك من القوة أو المنعة لدافع عنهم، ورفع عنهم ما نزل بهم من ضر وأذى، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن بيده حيلة، فمات ياسر تحت التعذيب، وأغلظت سمية القول لأبي جهل فما كان من ذلك

---

(١) الرمضاء: الرمل الحارة من شدة حرارة الشمس.

(٢) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٩٢)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣١٩، ٣٢٠) ، وانظر أيضاً: «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» لابن حجر (١٦/ ٢٩٥) (٤٠٠٢). وروى البلاذري عن أم هانئ رضي اللهَّ عنها: أن عمار بن ياسر، وأباه ياسراً، وأخاه عبد الله بن ياسر، وسميّة؛ كانوا يعذّبون في الله، فمرَّ بهم رسول الله ﷺ فقال: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**». انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٦٠).

الطاغية الجبار الذي نزع الله من قلبه الرحمة والرأفة والإنسانية، إلا أن طعنها في قُبُلها بحربةٍ كانت في يده فماتت رضي الله عنها وأرضاها[1].

وسوف نرى انتقام الله جل وعلا من بعض أولئك الطغاة الذين ظلموا ضعفاء المسلمين وعذبوهم وآذوهم، وكيف عاقبهم الله تبارك وتعالى يوم بدر، وكيف أخذ سبحانه تلك الرؤوس التي عذَّبت رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ومنهم أبو جهل فرعون هذه الأمة، عليه لعنة الله.

والجزاء من جنس العمل، فكل من طغى، وكل من تجبر، وكل من تكبر وتجاوز الحد، ونسي الله تبارك وتعالى؛ فإن عاقبته والعياذ بالله ﷻ وخيمة، ولا زلنا حتى في زماننا هذا نرى من الطغاة الذين أذلهم الله تعالى، وأزال ملكهم وعروشهم، فهل من معتبر، وهل من تارك للظلم والتجبر على عباد الله، فالظلم ظلمات يوم القيامة.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

هكذا قتلوا أبا عمار – ياسر – وأمَّه، تحت التعذيب، وأما عمَّار فشدَّدوا عليه التعذيب، بالنار تارةً، وبحر مكة ورمضائها تارةً، وبوضع الصخر على صدره

(١) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٢٨٢)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٦٠).

تارةً، وبالتغريق في الماء تارةً، وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمداً - عليه الصلاة والسلام -، أو تقول في اللات والعُزَّى خيراً.

فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما تركوه أتى رسول الله ﷺ قال: «**ما وراءك؟**» قال: شر يا رسول الله، ما تُرِكْتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير قال: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: مطمئن بالإيمان قال: «**إن عادوا فعد**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ** ﴾[1].

وبقي هذا تشريع للأمة كلها، فما دام أن القلب مطمئن بالإيمان فلا أثر لهذا اللسان، لو جاريتهم بألفاظ الكفر تحت الإكراه والتعذيب، وأنت كاره لها وغير مقر بها، حتى تتخلص من عذابهم ومن إيذائهم، وهذا رحمةٌ من الله تبارك وتعالى بمن تعرض لمثل هذا الإيذاء الشديد.

نقل ابن إسحاق عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه

---

(١) النحل: ١٠٦، وانظر: «المستدرك» للحاكم (٣٣٦٢) (٢/ ٣٨٩)، و«معرفة السنن والآثار» للبيهقي (١٦٦٥١) (١٢/ ٢٦٧)، وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجُعَلَ ليمُرُّ بهم، فيقولون له: أهذا الجُعل[1] إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جَهْدِه[2].

وممن آذوه إيذاءً شديداً: بلال بن رباح ﷺ، فقد كان نموذجاً آخر من نماذج الصبر والتضحية وبذل الروح والنفس في سبيل الله تبارك وتعالى، فكان سيده أمية بن خلف بن وهب - وهو أيضاً ممن قتلهم الله يوم بدر - إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد[3].

تخرج تلك الكلمات ضعيفةً من بين حنجرته المتعبة المرهقة، من بين أضلاع صدره الذي ضغطت عليه الحجارة، فرضي الله ﷻ عن بلال بن رباح الحبشي، سابق الحبشة، مؤذن رسول الله ﷺ.

---

(١) الجُعل: دابة كالخنفساء محدَّدة الذَّنَب، تفسو إذا مشت . انظر : «المخصص» لابن سيده، تحقيق: خليل جفال، ط ١، دار إحياء التراث، بيروت (٢/ ٣١٦) .

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٧، ٣١٨).

وظل كذلك حتى مر به أبو بكر الصديق ﷺ يوماً، وهم يصنعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه[1].

وكان بلال ﷺ مؤذن رسول الله ﷺ، خرج من تحت الصخرات، ومن فوق الرمال الملتهبة ليصدح بذلك الصوت الشجي، فيؤذن لرسول الله ﷺ، ومن فضائله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أُرِيتُ الجنةَ فرأيتُ امرأةَ أبي طلحة، ثم سمعتُ خشخشة أمامي، فإذا بلال**»[2]. وكان عمر ﷺ يقول: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا». يعني: بلالاً – رضي الله عنهم جميعاً –[3].

ولم يكن بلالٌ فقط هو من أعتقه أبو بكر الصديق، بل أعتق معه قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، وهم: عامر بن فُهَيْرة، وأمُّ عُبَيس، وزِنِّيرةُ، والنهدية وابنتها، وأبو فكيهة[4].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٤٥٧).

(٣) رواه البخاري (٣٧٥٤).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» (١/ ٤٢٤).

وزِنِّيرةُ، أُصيبَ بصرُها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيتِ الله، ما تضر اللات والعُزَّى وما تنفعان، فردَّ اللهُ بصرها، نتيجة يقينها وإيمانها بالله تبارك وتعالى[1].

والنهدية وابنتها، كانتا لامرأةٍ من بني عبد الدار، فأعتقهما أبو بكر، ومرَّ بجارية بني مُؤَمِّل- حي من بني عدي بن كعب- وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك، وهو يضربها، حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذر إليك أني لم أتركك إلا ملالة، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكر ﷺ، فأعتقها[2].

وأما أبو فكيهة - واسمه فليح، ويقال: يسار - فقد كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف، وأسلم حين أسلم بلال، فأخذه أميَّة بن خلف - لعنه الله - وربط في رجله حبلاً، وأمر به فَجُرَّ، ثم ألقاه في الرمضاء، فمر به جُعْلٌ، فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي، خلقني وخلقك وخلق هذا الجُعل، فغلظ عليه، وجعل يخنقه، ومعه أخوه أُبَيّ بن خلف، يقول: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره، فأخرجه نصف النهار في شدة الحر مقيداً إلى

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٨)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٤٢٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٨، ٣١٩).

الرمضاء، ووضع على بطنه صخرة، فدلع لسانه، فلم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات، ثم أفاق فمرّ به أبو بكر ﷺ فاشتراه وأعتقه[1].

وروى ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: كان أبو فكيهة يعذّب حتى لا يدري ما يقول[2].

وممن أوذوا أشدَّ الأذى: خباب بن الأرت ﷺ وأرضاه، وكان حدَّاداً بمكة، ووصل به العذاب أن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحماة، وكانت مولاته - أم أنمار الخزاعية - تأخذ الحديدة وقد أحمتها فتضعها على رأسه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**اللهم انصر خبّاباً**»، فاشتكت مولاته رأسها - وهي أم أنمار- فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فكان خباب يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها[3]؛ عقوبةً من الله تبارك وتعالى على الظلم الشديد الذي لاقاه منها خباب ﷺ.

---

(١) انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٦٠)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٤٢٤).

(٢) انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٦٠).

(٣) انظر: «إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع» للمقريزي، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (٩/ ١٠٨)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٥٩)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٤٢٥).

وسأل عمر خباباً عمَّا لقي من المشركين، فقال خبَّاب: «يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيتُ كاليوم، قال: «أوقدوا إليَّ ناراً، فما أطفأها إلا وَدَكُ ظهري» أي: دهنه!![1].

ولما اشتد ضرر قريش بالمستضعفين من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وأذيتها لهم، ذهب خباب بن الأرت إلى رسول الله ﷺ يستنصر به هو والمستضعفون من الصحابة، فقالو له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[2].

هكذا أوذي الأنبياء والمرسلون والصالحون، وعُذِّبوا أشدَّ العذاب، وانظر إلى هذه الشدَّة التي عاشها الصحابة الكرام، وهذا العذاب وهذا

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ١٤٣)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٤٢٥). وروى ابن ماجه (١٥٣) عن أبي ليلى الكندي، قال: جاء خباب إلى عمر فقال: «ادن، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، فجعل خباب يريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون».

(٢) رواه البخاري (٣٦١٢).

الاضطهاد، ومع هذا يُصبِّرهم النبي ﷺ، ويُعلمهم أن هذا طريق الأنبياء والصالحين من قبل، وأنه لا بد من فتنة وابتلاء، ويبشرهم بأن العاقبة ستكون لهم بإذن الله تعالى.

ونأخذ من هذا عبرة ودرساً في الحفاظ على هذا الدين والتمسك به، فقد وصل إلينا بتضحيات جسام من الجيل الأول من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فالواجب علينا أن نصونه وأن نحفظه وأن ندعو الناس إليه في جميع الأوقات، لاسيما في تلك الفترات التي تتعرض فيها دعوة الإسلام للتشويه المتعمد، وإثارة الشبهات والأراجيف حولها.

نسال الله تبارك وتعالى أن يرد كيد الكائدين في نحورهم، وأن يوفق المسلمين للقيام بواجبهم في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وبذل أموالهم وأعمارهم وأوقاتهم وجهودهم في سبيل هذا الدين.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



الإيذاء الشديد لبعض كبار المسلمين وأغنيائهم

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لازلنا نواصل الحديث مع الدروس والعبر المستفادة من سيرة النبي المصطفى ﷺ، لنأخذ منها ما ينير حياتنا، وينير دربنا، لنسير في هذه الحياة على ضوء هذه السيرة المباركة.

وكنا قد وقفنا في الحديث عند بداية الامتحان والابتلاء للصَّفوة المؤمنة القليلة التي كانت لا تتجاوز الأربعين من صحابة النبي ﷺ، وذكرنا بَعْضاً مما لاقوه من العذاب الشديد، واليوم نكمل شيئاً من هذا الإيذاء، مما أصاب بعضاً من كبراء المسلمين وأغنيائهم، فلم يكن البلاء قاصراً على الضعفاء فقط، بل حتى الأغنياء صُبَّ عليهم ألوان من العذاب، بل حتى النبي ﷺ أوذي أشد الإيذاء، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد بإذن الله تبارك وتعالى.

ومن هؤلاء الذين أُوذوا أشدَّ الإيذاء: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، خليل النبي ﷺ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومصعب بن عمير، وخالد بن سعيد بن العاص، وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن مسعود؛ رضي الله عنهم جميعاً، فكل هؤلاء رغم أن لهم عشيرة وقبيلة تحامي عنهم، ورغم أن لهم مالاً وجاهاً، إلا إنهم – مع ذلك – تعرَّضوا للأذى والابتلاء.

قالت عائشة رضي الله عنها: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال ﷺ: «**يا أبا بكر إنَّا قليل**». فلم يزل أبو بكر يلحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فَضُرِبُوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووُطِئَ أبو بكرٍ، وضُرِبَ ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين – أي: أي مطبقتين - ويُحَرِّفهما لوجهه، وأثر على وجه أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه[1].

وجاء بنو تيم يتعادون، فأَجْلَتِ المشركين عن أبي بكر، وحملتْ بنو تيم أبا بكر في ثوبٍ حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته[2]، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة. فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة - والد أبي بكر - وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ لم يسأل عن

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤٣٩)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٤١٨، ٤١٩).

(٢) وهذا بدافع النخوة العربية والقبلية والحمية، وقد سخرها الله تبارك وتعالى أولاً: لحماية نبيه ﷺ، وثانياً: لحماية بعض أصحابه ممن لهم قبيلةٌ وعشيرةٌ تُدافع عنهم.

نفسه وما جرى له، ولا سأل عن أهله، ولا عن أبيه، ولا عن أمه، إنما كان سؤاله عن رسول الله ﷺ، حبٌ عظيمٌ ملأ قلبه للنبي ﷺ، وهكذا قام الإسلام على الحب العظيم الراسخ لله ولرسوله ﷺ، ولا يمكن أن يعود الإسلام قوياً إلا إذا قوي حُبُّ الله وحبُّ رسوله ﷺ في نفوسنا، أما إذا بقي حب الله وحب رسوله ﷺ باهتاً في قلوبنا، تتنازعه الدنيا، وربما تتقدم عليه الدنيا وشهواتها وملذاتها وطلباتها، فلن يعود للإسلام عزه وسلطانه وقوته كما كان في القرون الأولى.

الإسلام قام على قاعدةٍ صلبة متينة، قاعدة الحب لله تبارك وتعالى، والحب هو الذي يوقظك لصلاة الفجر، والحب هو الذي يدفعك للمحافظة على الصلوات في الجماعة، والحب هو الذي يعينك على بر الوالدين، وعلى صلة الأرحام، وعلى مراقبة الله تبارك وتعالى، حب الله وحب رسوله ﷺ هو الذي يجعلك تخاف من الله تبارك وتعالى، فلا تأكل أموال الناس بالباطل، وتعطي كل ذي حقٍ حقه، ولا تؤخر ولا تسوِّف ولا تظلم، حب الله ورسوله فيه كل خير وبر.

فلما قال أبو بكر ﷺ ذلك: «ما فعل رسول الله ﷺ؟» مسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه، -أي أن بني تميم وقعوا فيه بألسنتهم وعاتبوه ولاموه - ثم قاموا وقالوا لأمه - أم الخير-: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه؟. فلما خلتْ به

ألحَّتْ عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ - قلبه مضطربٌ خائفٌ على النبي ﷺ، لا يريد طعاماً ولا شراباً، وإنما يريد أن يطمئن على النبي ﷺ - فقالت: والله مالي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب - وكانت ممن أسلمت رضي الله عنها وأرضاها - فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك. قالت: نعم[1]. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفَاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت: هذه أمُّك تسمع- وهذا من حرص أم جميل رضي الله عنها على عدم تعريض حياة النبي ﷺ للخطر -، قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم. قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة

(١) وهذا من باب التورية والتعمية لحفظ النبي ﷺ وعدم تعريضه للخطر، لأن المسلمين لا زالوا قلة وضعفاء، فانظر إلى فقه الدعوة ومعرفة واجب الوقت حتى عند النساء.

شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي بَرَّةٌ بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار[1]. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت[2].

وهذه الأفعال التي فعلتها أم جميل بنت الخطاب تدل على الحكمة، وتدل على التخطيط، وتدل على أخذ الحيطة والحذر، وتدل على مدى حرص الصحابيات – قبل الصحابة – على حياة النبي ﷺ، وعدم تعريضه للخطر بأي أمر ولو كان يسيراً، وتأمل قول راوي القصة: «فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرِّجْل» يعني: هدأت حركة الناس، لئلا يشعر بهم أحد وهم ذاهبون للنبي ﷺ، فيعرف المشركون مكانه ومكان المسلمين الأولين من الصحابة معه، فيتعرضون للأذى؛ وهذا من الحكمة والحيطة والحذر، فالإسلام ليس دين

---

(١) انتهز أبو بكر الفرصة والوقت المناسب ليدعو النبي ﷺ لأمه بالهداية والإسلام، فالعواطف جياشة، والنفوس متأثرة بالموقف، والنبي متأثر، ولا شك أن الأم وهي ترى هذا المظهر لاشك أنها تأثرت أيضاً، وفعلا أسلمت، وكيف لا تسلم وقد دعا لها رسول الله ﷺ، وهذا أيضاً يدل على حكمة أبي بكر في اقتناص الفرص، وهكذا ينبغي للمسلم أن يكون حكيماً، وأن يتكلم الكلام المناسب في الوقت المناسب، ولا يجعل كلامه في كل وقت، وإنما يختار الفرص والأوقات المناسبة التي تكون فيها النفوس متأثرة ومتهيئة لتلقي الدعوة، وتلقي النصيحة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤٤٠، ٤٤١)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٤١٩).

فوضى، وليس دين إهمال، وإنما كل شيءٍ فيه يتم بدقة وبنظام، وبحكمة وبعقل.

وهذا سعد بن مالك ﷺ، ذكر ابن كثير عنه أنه قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾[1]، قال: كنتُ رجلاً برَّاً بأمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتُعَيَّر بي، فيُقال: يا قاتل أُمِّه. فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثتْ يوماً وليلةً لم تأكل فأصبحت قد جَهِدَتْ، فمكثتْ يوماً آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحتْ قد اشتدَّ جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلتُ: يا أُمَّهْ، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجتْ نَفْسَاً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ لا تأكلي، فأكلتْ[2].

---

(١) لقمان: ١٥ .

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٣٧). وانظر أيضاً : «مسند أحمد» بتحقيق أحمد شاكر (١٥٦٧) فقد روى جزءاً منه بلفظ مقارب .

هكذا كان الإيمان في نفوسهم، وهكذا ينبغي أن نكون، وإلا فلن تقوم لنا قائمة وليس لنا عزٌ حتى يرسخ الإيمان في هذه النفوس، ونضحي لأجله بالغالي والنفيس.

وهذا مصعب بن عمير ﷺ، وكان شاباً صغيراً من أنعم أهل مكة وأجوده حلةً وكان أبواه يحبانه حباً شديداً، وكانت أمه كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، وبلغ من شدة كلف أُمِّه أنه يبيت وقعب الحيس عند رأسه - والحيس: حلوى يصنعها أهل مكة من التمر والسمن والحليب - فلا يستيقظ من نومه إلا ويجد الحلوى وقد أُعِدَّتْ له عند رأسه، فلما أسلم ودخل على النبي ﷺ في دار الأرقم، وكتم إسلامه خوفاً من أُمِّه، ثم بصر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر أُمَّه وقومه، فأخذوه وحبسوه حتى جاء موعد الهجرة الأولى للحبشة، وهو محبوس عند أُمِّه لا يذوق من الطعام إلا أصعبه، ولا من الشَّراب إلا أقلَّه.

قال سعد بن أبي وقاص: كُنَّا قوماً يصيبنا صلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك، وصبرنا له، وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة، وأجوده حُلَّة مع أبويه، ثم لقد رأيته جَهِد في الإسلام جهداً شديداً حتى لقد رأيت جلده يتحشف تحشف جلد الحية عنها، حتى أن كنا

لنعرضه على قسيِّنا فنحمله مما به من الجهد، وما يقصر عن شيء بلغناه، ثم أكرمه الله عز وجل بالشهادة يوم أحد[1].

من شدة الجوع، ومن شدة الابتلاء والفقر، كان جلده يتقشر ويتساقط، بعدما كان فيه من غنى وترف، ﷺ وأرضاه.

وهذه رسالة لمن كان مترفاً، فلا يظن أن هذا الترف يمنعه من أن يلتزم بدين الله تبارك وتعالى، ولا يمنعه من أن يتخلق بأخلاق الدين، أبداً، بل الشرع يعينه على الحياة، وعلى السعادة، وعلى الخير والبركة، بإذن الله تبارك وتعالى.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٩٣).

إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا في مواقف ودروس وعبر من سيرة المصطفى ﷺ، وكنا قد تحدثنا عن الابتلاء الذي نزل على الفئة المؤمنة في مكة المكرمة، بعد أن أعلن النبي ﷺ الدعوة وجهر بها، وذكرنا جانباً من الإيذاء الذي وقع على المستضعفين الذين ليس لهم ناصر إلا الله تبارك وتعالى، فلا عشيرة ولا قبيلة، وكيف فُتك بهم ممن لا رحمة فيهم ولا إنسانية، ثم ذكرنا ما أصاب حتى الكبراء والأغنياء من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من الابتلاء والامتحان.

واليوم نذكر ما أصاب قائدهم وزعيمهم محمداً ﷺ من الابتلاء، فلم يكن بعيداً عن هذا الابتلاء والامتحان الذي يصيب أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، بل كان عليه الصلاة والسلام أكثرهم ابتلاءً وامتحاناً.

والمواقف كثيرة، ولكننا نذكر جزءاً منها فقط، لنرى كيف تحمل رسولنا ﷺ هذا الإيذاء، وهذا الابتلاء، في سبيل تبليغ هذا الدين للأمة كلها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال أبو جهل[1]: هل يُعفِّر محمدٌ وجهه بين أظهركم؟ - أي: يسجد ويلصق وجهه بالعفر، وهو التراب- فقيل: نعم،

(١) واسمه عمرو بن هشام وسماه المسلمون بذلك لكثرة جهله وظلمه.

فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأُعَفِرَنَّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته[1]، قال: فما فَجِئَهم منه إلا وهو يَنْكُصُ على عقبيه ويتقي بيديه - فزعاً وخوفاً ورعباً -، فقيل له: ما لَكَ؟ فقال: إن بيني وبينه لخندَقاً من نارٍ وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**» قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ ﴾[2] يعني أبا جهل ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[3]».

وروى ابن إسحاق وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب

---

(١) والصلاة شوكة في حلوق الكفرة والفجرة والظلمة، و شوكة في حلوق أعداء الإسلام إلى يومنا هذا، عندما يرى أعداء الإسلام المسلم محافظاً على دينه، وذلك يتمثل في حفاظه على صلاته، وهي رمز وقمَّة هذا الدين، يصيبهم ما يصيبهم من الغيظ والحقد والكره عليه وعلى الإسلام.

(٢) العلق: ٦ – ١٣ .

(٣) العلق: ١٤ – ١٩، والحديث رواه مسلم (٢٧٩٧).

ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني لأعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر فإذا سجد في صلاته فضحت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً وقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه، رجع منتقعاً لونه، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، فأتى قريشاً، فقالوا له: مالك؟ قال: لما قمت إليه عرض لي فحل من الإبل، فو الله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ أن يأكلني. فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك جبريل، لو دنا مني لأخذه**»[1].

وهكذا نرى جرأة أعداء الإسلام على النبي ﷺ، وفي الوقت نفسه: حفظ ربنا تبارك وتعالى ونصرته لرسوله ﷺ، ويرى أعداء الإسلام هذه الآيات وهذه الدلائل البينات، ومع هذا نرى العناد والكبرياء والإصرار على الكفر والعياذ بالله تبارك وتعالى.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيُّكم

(١) انظر: «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٥٩٠)، و«سبل الهدى والرشاد» (١٠/ ٢٥٥).

يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها[1] ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يُمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم - وهو عقبة بن أبي مُعيط، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ -، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه؟ وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلقَ مُنطلِقٌ إلى فاطمة عليها السلام - وهي جويرية -، فأقبلتْ تسعى - أي تهرول -، وثَبَتَ النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «**اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش**»، ثم سمَّى: «**اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد**» قال عبد الله رضي الله عنه: فو الله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأُتْبِعَ أصحابُ القليبِ لعنةً**»[2].

فانظروا إلى هذه المشقة وهذا الألم، وهذه الإهانة التي تعرَّض لها رسول الله ﷺ، وهذا التطاول الذي تطاول به المشركون عليه ﷺ.

---

(١) الفرث: ما في الكرش من الأقذار.

(٢) رواه البخاري (٥٢٠). والقليب: يعني: البئر التي دفنوا فيها.

وعن عروة بن الزبير ﷺ، قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: «بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1]».

وأورد ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عدوانه؟ فقال: لقد رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعاتنا، وسبَّ آلهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم[2]؛ فبينا هم في ذلك، طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي، حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه، فمضى، ثم مرَّ الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف، ثم قال: «**أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح**»، فأخذت القوم كلمته حتى

---

(١) غافر: ٢٨ ، والحديث رواه البخاري (٣٨٥٦) .

(٢) انظر إلى دعاة الباطل، كيف يقلبون الحق باطلاً والباطل حقاً، ويقلبون المظلوم ظالماً والظالم مظلوماً.

ما من رجل إلا ولكأنما على رأسه طائر واقع، وحتى إن أشدَّهم فيه وصاة قبل ذلك لتلقاه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشداً، فو الله ما أنت بجهول، فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينا هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي يقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «**نعم، أنا الذي أقول ذلك**» - وهذا من شجاعته ﷺ، فهو يقول الصدق دائماً وأبداً، لا يعرف النفاق ولا الكذب ولا الدجل -، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، وقام أبو بكر الصديق دونه يبكي ويقول: ويلكم ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ**﴾[1]، ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأكثر ما رأيت قريشاً بلغت منه قط[2].

وكان أبو لهب- عم النبي ﷺ - من أشدِّ الناس عداوةً لرسول الله ﷺ، وزوجه كذلك أم جميل، وقد نزل فيهما قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وأم جميل بنت حرب بن أمية - حمالة الحطب- وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب،

---

(١) غافر: ٢٨ .

(٢) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ٢٢٩، ٢٣٠).

لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمرّ، فأنزل الله تعالى فيها وفي زوجها أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1]. وقد سبق ذكر كلام أبي لهب، والذي بسببه نزلت هذه الآيات، عندما جهر النبي ﷺ بالدعوة ودعا قومه إلى الإسلام علانية، فقال له أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا[2] .

وحين سمعت أم جميل - حمالة الحطب - ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فِهْرٌ – أي: حجرٌ-، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت: مُذَمَّما عصيناً... وأمره أبينا... ودينه قلينا – أي: أبغضنا – ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: «**ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني**»، قال ابن إسحاق: وكانت قريش إنما تسمي

---

(١) المسد: ١ - ٥، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٧٧٠).

رسول الله ﷺ مُذَمماً، ثم يسبونه، فكان رسول الله ﷺ يقول: «**ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد**»[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أُخِفْتُ في الله وما يُخَافُ أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيء يواريه إبط بلال**»[2].

هكذا أُوذي رسولنا ﷺ في الله أشدَّ الإيذاء، فصبر حتى ظفر ونصره الله تبارك وتعالى، ومكَّنه من أعدائه، ونشر به دين الله تبارك وتعالى في كل مكان، وفي هذا درسٌ لكل داعيةٍ، ولكل عالم: أن هذا الابتلاء سنة من سنن الله ﷻ، ليكفر الذنوب، ويرفع الدرجات، وكل من تَصَدَّر للدعوة إلى الله تعالى لا بد أن يُبتلى بنوع من أنواع البلاء، وعليه أن يصبر وأن يحتسب الأجر من الله تعالى، حتى يحصل له الرفعة والتبليغ والتمكين بإذن الله تعالى.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٦) ، والحديث رواه البخاري (٣٥٣٣) عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ بلفظ: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً ، وأنا محمد**».

(٢) رواه الترمذي (٢٤٧٢) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». ومعنى: (ذو كبد) أي ذو حياة، (إلا ما وارى) أي: إلا بمقدار ما يحمل بلال ويواريه تحت إبطه.

المساومات والمفاوضات مع رسول الله ﷺ

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا نقطف من ثمار سيرة المصطفى ﷺ، ومن مواقفها ودروسها وعبرها ما يكون لنا نبراساً وقدوةً نقتدي به في حياتنا الدنيا، وكان الحديث في الجمع الماضية قد توقف عند البلاء والامتحان الذي صُبَّ على أصحاب النبي ﷺ، من فقراء وأغنياء، بل وعلى رسول الله ﷺ نفسه، واليوم نتعرض لوسيلة أخرى من وسائل المشركين في محاربة الدعوة ومقاومتها، وهو أسلوب المساومات والمفاوضات.

لما يئس المشركون من هذه الوسيلة الضعيفة، وسيلة استخدام القوة والضرب والإهانة، لجئوا إلى وسائل أخرى، فكانت وسيلة المساومة والإغراء والمفاوضات، فلعلَّها أن تجدي مع محمدٍ ﷺ وأصحابه، فأرسلت قريش عتبة بن ربيعة - وكان من أصحاب الرأي فيهم - ليحاور ويفاوض ويساوم النبي ﷺ، فذهب إليه عتبة ليعرض عليه بعض الأمور لعله أن يقبلها ويكف عنهم. ذكر ابن إسحاق: عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم

إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفَّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلِّمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ - أي: الشرف - في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع[1]، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً - بدأ بإغراء المال، والذهب، والفضة التي تذهب بعقول بعض الناس فتطيح بهم، المال الذي يضعف أمامه كثيرون من البشر-، وإن كنت تريد به شرفاً

(١) جوابه ﷺ جواب الحكيم العاقل، مع أنه يحاور مع عدواً مخالفاً فكيف ينبغي أن يكون حوارنا نحن المسلمين مع بعضنا البعض، كثير من المسلمين – وللأسف الشديد - لا يعرفون أدب الحوار، ولا أدب المناظرة والمناقشة والمجادلة بالتي هي أحسن، وهنا يبين لنا النبي ﷺ أدب الحوار حتى مع غير المسلم، فمن باب أولى أن يوجد مع المسلم، أن يكون حوارك بالأدب والاحترام المتبادل، وليس بالتعالي والتجريح والشتم والتطاول كما هو حال بعض الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا[1]، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[2] تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع – من يتبع الناس من الجن – على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له.

وهذه العروض عبارة عن إغراءات مالية، وإغراءات بالجاه والسلطان، وإغراءات بالنساء، وكل هذه الإغراءات تؤثر في قلب الداعية إلى الله تبارك وتعالى، وقد تصده عن دعوته، بل عن دينه – والعياذ بالله تعالى – ولذا فإن أعداء الإسلام يسعون في إغراء الدعاة إلى الله وأهل العلم والفضل والصلاح، ليصدوهم عن دينهم، أو على الأقل يحرفونهم عن مسار دعوتهم الصحيح. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه[3]، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟[4]، قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال ﷺ: «بسم الله الرحمن

---

(١) قد يقول قائل: لماذا لم يقبل النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون ملكاً عليهم، وأن يكون سيدهم كما طلبوا منه، ثم بعد ذلك يدعوهم إلى الإسلام، لأن القائد له سلطة عليهم، فلماذا لم يستعمل هذه الوسيلة؟ والجواب: أن الغاية نبيلة، فالوسيلة ينبغي أن تكون نبيلة كذلك، فالغاية لا تبرر الوسيلة، أما أن نصل إلى تبليغ الدعوة بالكذب على الناس، وبالغش والدجل، فهذا ليس من دين الله تبارك وتعالى.

(٢) الرئي (بِفَتْح الرَّاء وَكسرِهَا): ما يتَراءى للإنسَان من الجن.

(٣) يستمع منه النبي ﷺ، لم يقاطعه في الحديث؛ لأن هذا من أدب الحديث، أن تستمع ولا تقاطع.

(٤) يستحثه على الحديث، لعله بقي شيء عنده لم يتكلم به، فهو يبدي استعداده لسماعه، وهذا أيضاً من

الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[1]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم - يحلف بالله - لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[2].

أدب الحديث، ثم إنه يكنيه بأبي الوليد، من باب احترام الخصم وتقديره، وهو أيضاً من أدب الحديث والمناظرة والحوار.

(١) فصلت: ١ - ٤.

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٣، ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٦٣).

وعرض وفدٌ آخر من قريش- وهم (عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان ابن حرب، ورجل من بني عبد الدار، وأبو البختري أخو بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميين) – عرضوا على النبي ﷺ هذه الطلبات، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يُحِبُّ رشدهم، ويعزُّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك!، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوَّدناك علينا، وإن كنت تريد مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئي- فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب

الطب، حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك. فقال رسول الله ﷺ: «**ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم**»[1]، جواب منطقي، جواب عاقل، جواب حكيم، رغم أنهم آذوه في ألفاظهم، ولم يرد عليهم، وهكذا ينبغي للداعية أن يكون حديثه مع الناس حديث اللطف، حديث الإقناع، حديث الوضوح والبساطة، لا حديث التعقيد، وحديث التطويل، وحديث التطاول والتعالي.

واعترض الأسودُ بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليدُ بن المغيرة، وأميةُ بن خلف، والعاصُ بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، اعترضوا رسولَ الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة، فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ**

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٩٧، ١٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١١٨).

﴿عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، أي: إن كنتم لا تعبدون إلا الله، إلا أن أعبد ما تعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم، لكم دينكم جميعاً، ولي ديني [2].

وجاء وفد آخر بعد فشل الوفد السابق، يتكون من عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص ابن عامر؛ جاءوا ليقدموا عرضاً آخر للتنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النبي ﷺ أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم، فأنزل الله لهم جواباً حاسماً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[3].

---

(١) الكافرون: ١ – ٦.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٦٢) ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري» (٨/ ٧٣٣): (وقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: «قالت قريش للنبي ﷺ: كفّ عن آلهتنا فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فنزلت» أي : سورة الكافرون ، وفي إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى، وهو ضعيف) . وأوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره (٨/ ٥٠٧) بصيغة التضعيف فقال: «وقيل إنهم – أي: كفار قريش- من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ».

(٣) يونس: ١٥، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي، (ص٢٠٠)، و«نور اليقين» للخضري، (ص٦١).

وهكذا يريد أن يفعل أعداء الإسلام اليوم، يطالبون بحذف بعض الآيات من كتاب الله ﷻ، أو عدم تدريسها في المناهج، كآيات الجهاد، والآيات التي تذم اليهود والنصارى، ونحوها من آيات، يظنون قرآننا مثل أناجيلهم المحرفة، وتوراتهم المحرفة، ولم يعرفوا أن هذا القرآن محفوظ بحفظ الله تبارك وتعالى، كما قال الله جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] ثم إنَّ زعماء قريش لما يئسوا من النبي ﷺ ذهبوا إلى عمه أبي طالب فكلموه، وقالوا: ما نحن يا أبا طالب – وإن كنت فينا ذا منزلة بسنك وشرفك وموضعك – بتاركي ابن أخيك على هذا حتى نهلكه أو يكفَّ عنا ما قد أظهر بيننا من شتم آلهتنا، وسب آبائنا، وعيب ديننا، فإن شئت فاجمع لحربنا، وإن شئت فدع، فقد أعذرنا إليك، وطلبنا التخلص من حربك وعداوتك، فانظر في أمرك، ثم اقض إلينا قضاك – وصل بهم الغضب والحقد إلى حدِّ إعلان الحرب –، فلما قالت قريش لأبي طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا: كذا وكذا، للذي قالوا له، وآذوني قبل، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، واكفف عن قومك ما يكرهون من قولك هذا

(١) الحجر: ٩ .

الذي فرق بيننا وبينهم، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عمِّ لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه**»، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، فلما ولى قال له- حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله ﷺ -: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه، فقال: امض على أمرك وافعل ما أحببت، فو الله لا نسلمك بشيء أبداً[1].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٥٤)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٦٦) ، وأورده الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» بلفظ : «**يا عم! والله لووضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**» . وقال الألباني : ضعيف .

إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ ، حديثي إليكم اليوم بإذن الله تعالى عن مرحلة مهمة من مراحل الدعوة النبوية المباركة، ألا وهي: إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما في السنة السادسة من الهجرة ، فبإسلامهما تغيرت معادلة القمع والظلم المفرط الذي تعرض له المسلمون في مكة، وأصبح هناك شيء من توازن القوى، وإن لم يكن بشكل كامل، إلا أن إسلامهما أعطى للمسلمين مساحة أكبر من الجهر بإسلامهم، والجهر بدعوتهم إلى الله تعالى، دونما خوف من أذى المشركين واضطهادهم .

قال ابن اسحاق: حدثني رجل من أسلم وكان داعيةً، أن أبا جهل مرَّ برسول الله ﷺ فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه إلى نادٍ من قريش عند الكعبة وجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، فلما مرَّ بالمولاة - وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته – قالت: يا أبا عمارة، لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجدَه هاهنا جالساً فآذاه وشتمه وسبَّه، وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه، ولم

يكلمه محمد ﷺ ، فخرج حمزة يسعى ليوقع بأبي جهل، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجةً منكرةً، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتمَّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع[1] .

قال ابن إسحاق: ثم رجع حمزة إلى بيته فأتاه الشيطان فقال: أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابىء، وتركت دين آبائك، للموت كان خير لك مما صنعت فأقبل على حمزة بثّه، فقال: ما صنعت اللهم، إن كان رشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً، فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان وتزيينه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يابن أخي، إني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلى على ما لا أدري ما هو أرشداً هو أم غي شديدة؟ فحدثني حديثاً فقد اشتهيت يابن أخي أن تحدثني، فأقبل رسول الله ﷺ فذكَّره ووعظه وخوَّفه وبشَّره،

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٧١، ١٧٢) .

قال: فألقى الله عز وجل في نفسه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أنك صادق، شهادة الصدق العارف، فأظهر يابن أخي دينك، فو الله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأني على ديني الأول. فكان حمزة ممن أعز الله به الدين[1]. هكذا أسلم حمزة رضي الله عنه .

وأما إسلام عمر رضي الله عنه، فقد خرج عمر يوماً متوشِّحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه – حيث ذُكِرَ لعمر أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا – ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرَّتْك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٧٢)، و «السيرة النبوية» لابن كثير (ص ٤٤٦) .

الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها: سورة «طه» يقرئهما إياها، فلما سمعوا حِسَّ عمر، تغيب خباب في مخدع[1] لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة [2] التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد ابن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة،

---

(١) المخدع : البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير .

(٢) الهينمة: صوت كلام غير مفهوم.

وفيها: سورة «طه» فقرأها، فلما قرأ منها صدراً، ذكرت بعض كتب السير أنه قرأ من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾[1]، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر ابن الخطاب»، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان (جاء) يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجمع ردائه، ثم جبذه جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا

---

(١)طه: ١٤ .

بن الخطاب؟ فو الله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم ، فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم[1].

قال ابن مسعود ﷺ : «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»[2].

وقيل لعمر ﷺ: ما سبب تسمية النبي ﷺ لك بالفاروق؟ قال: لما أسلمت والنبي ﷺ وأصحابه متخفون، قلت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم»، فقلت: ففيم الاختفاء، والذي بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، والذي بعثك بالحق لنخرجن، فخرجنا في صفين حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، له: أي لذلك الجمع - كديد ككديد الطحين – أي: لذلك الجمع غبار ثائر من الأرض

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٦٨٤) ، ومعنى: (ما زلنا أعزة) أي: أصبحوا يستطيعون الظهور وإعلان إسلامهم ولا يخافون من أذى قريش كما كان الأمر قبل إسلام عمر ﷺ .

لشدة وطء الأقدام، لأن الكديد التراب الناعم إذا وطئ ثار غباره؛ قال: – حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فطاف رسول الله ﷺ بالبيت وصلى الظهر مُعلناً ثم رجع ومن معه إلى دار الأرقم، فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق، فرَّق الله بي بين الحق والباطل [1].

وعن صُهيب بن سِنان الرومي ﷺ قال: لما أسلمَ عمرُ ظهَرَ الإسلامُ ودُعِيَ إليه علانيةً، وجلسنا حول البيت حِلَقَاً، وطُفْنَا بالبيتِ، وانتصفنا ممن غَلُظَ عَلَيْنا، ورَدَدْنا عليه بعضَ ما يأتي به [2].

والشاهد هنا أن إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما كان مرحلة فارقة في تاريخ الدعوة، حيث أنه أتيح للمسلمين أن يجهروا بدعوتهم وأن يعلنوها مما كان سبباً في سرعة انتشار الإسلام، فلله سبحانه وتعالى الفضل والمنّ .



(١)«السيرة الحلبية» (١/ ٤٧٣) .

(٢) « تاريخ المدينة» لعمر بن شبة (٢/ ٦٦٠) .

الهجرة الأولى إلى الحبشة

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، تحدثنا في مواقف وعبر ودروس سيرة النبي المصطفى ﷺ عن: ما تعرضت له الفئة المؤمنة -بعد أن جهر النبي ﷺ بالدعوة – من الابتلاء والأذى الشديد، فقيرهم وغنيهم، بل حتى رسول الله ﷺ مسه ذلك الأذى والابتلاء، ثم ذكرنا أيضاً ما حاول به المشركون محاربة الدعوة من مساومات ومفاوضات ومحاورات.

واليوم أتحدث بإذن الله تعالى عن الهجرة الأولى للحبشة للصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم .

والهجرة تدلنا على أن هذا الدين العظيم لم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً محلياً خاصاً بمكة أو الجزيرة، وإنما من أول يومٍ كانت نظرة النبي ﷺ في دعوته لهذا الدين نظرة عالمية، ولذلك أول ما فكر عليه الصلاة والسلام في الهجرة، فكر في الهجرة إلى الحبشة – خارج حدود الجزيرة العربية – وليس هذا بغريب، فالرسول ﷺ قد سافر إلى بلاد الشام مرتين، وكان يستمع لأخبار حرب فارس والروم، فالنبي ﷺ يتحرك في دعوته بنظرةٍ عالمية ودولية؛ لأنه مُكلَّف برسالة يبلغها لمشارق الأرض ومغاربها.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[1]، قال قتادة: المراد أصحاب محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين[2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[3].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تبارك وتعالى: «هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[4]»؛ فالدين هو الأصل، فإذا لم يتمكن الإنسان من إقامة الدين لا بد من الهجرة، وليست الدنيا هي الأصل، الأصل أن يكون أمر الدين هو الأول، وهو الأهم، لأن الفتنة في الدين أشد من القتل، ثم قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مُقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض

---

(١) النحل: ٤١.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٠٧).

(٣) العنكبوت: ٥٦.

(٤) العنكبوت: ٥٦.

الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خيرَ المنزلين، أَصْحَمَةَ النجاشيَ ملكَ الحبشة، رحمه الله، آواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم شُيُوماً ببلاده[1]، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة»[2].

هذه بعض الآيات التي تحدثت عن الهجرة، ويظهر لنا من خلالها: أن من أسباب الهجرة مخافة الفتنة في الدين، فقد آذى مشركو مكة المؤمنين أشد الإيذاء، وحاولوا فتنتهم عن دينهم بكل سبيل.

ومن أسباب الهجرة أيضاً: نشر الدعوة إلى الله تعالى خارج حدود مكة، فمكة مرتبطة بجزيرة العرب، وقبائل جزيرة العرب تدين لقريش وتحترمها وتطيع أوامرها، وقريش في هذه المرحلة تحارب دعوة الإسلام بكل قوتها وجبروتها، فكان من الحكمة أن تتخذ الدعوة موطناً آخر، وتجربة أخرى خارج جزيرة العرب، وهذا - كما ذكرنا - من عالميَّة الإسلام، فالنبي ﷺ لجأ لخارج الجزيرة بحثاً عن مكان آمن للمسلمين، احتياطاً لهذا الدين؛ خوف أن يفتك مشركو مكة بالمؤمنين، فينتهي الإسلام بانتهاء الفئة المؤمنة، فأخرج

---

(١) الشيوم: الآمنون في الأرض . انظر: «صحيح السيرة النبوية» للألباني، ط١، المكتبة الإسلامية ، عمان، الأردن (ص ١٧٦) .

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٩٠).

النبي ﷺ بعض المؤمنين خارج الجزيرة احتياطاً لدين الله تبارك وتعالى، وإن عادوا من هذه الهجرة لمكة ولكنه أعادهم عليه الصلاة والسلام وأكثر منهم مرةً أخرى إلى الحبشة، ولم يسمح لهم بالعودة إلى الحبشة حتى وصل المدينة، بل وحتى فتح خيبر، بعدما شعر أن الإسلام توطد في المدينة، عند ذلك سمح لهم أن يعودوا من الحبشة إلى المدينة، وهذا كله يدل على التخطيط، فليس في الإسلام عشوائية ولا فوضوية، والمسلم ينبغي أن يتعلم من ذلك التخطيط في كل أموره.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ وجدها مليئة بالتخطيط وحسن دراسة الأوضاع واستشراف المستقبل، منذ بدئه دعوته بالسر، ثم إعلانه للدعوة وجهره بها، ثم حواراته ومفاوضته مع المشركين، ثم تأتي هذه الهجرة.

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملِكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام [1].

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢١، ٣٢٢).

وقول النبي ﷺ لأصحابه: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدقٍ**». يدل على اطلاع الرسول عليه الصلاة والسلام على الواقع الذي يعيشه، وعلى معرفته بالبلاد التي حوله وأحوال أهلها وملوكها، فلم يكن ﷺ منغلقاً على نفسه، يجهل ما يدور حوله في بلده، أو في غيرها من البلاد، بل يتتبع ويسمع ويوازن ويقارن ويرجح ، وهذا من رجاحة عقله عليه الصلاة والسلام.

وتأمل قوله: «**فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد**»؛ فالعدل من أعظم ما جاء به الإسلام، قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ**﴾[1]، وهو ركن ركين من أركان هذا الدين، ولذلك لما سمع النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا الملك وعدله- وإن لم يكن مسلماً، فإنه ﷺ أثنى عليه بعدله رغم كفره – أشار على أصحابه بالهجرة إلى بلاده، وهذا فيه إشارة إلى التعايش مع غير المسلمين، أن يتعايش المسلم مع غير المسلم، وأن يختلط المسلم بغير المسلم ويحسن له ويبره، ما لم يكن محارباً، ولعل إحسانه التعامل معه يدفعه للدخول في الإسلام.

---

(١) النحل: ٩٠.

واختار النبي عليه الصلاة والسلام هذه القارة لأنها أقرب القارات، ولأن هذه القارة الإفريقية فيها من الخيرات الشيء الكثير، فهي ثروة بشرية من جهة، وثروة مادية من جهة أخرى.

وهذا ما دفع الغرب إلى أن يتوجهوا إلى إفريقيا، ويهتموا بها، ويبذلوا الغالي والرخيص من أجل السيطرة عليها، لما فيها كنوز بشرية ومادية، وقد اجتهد الغرب في أن يُنَصِّروا هذه القارة بأكملها، ويخرجوها من دين الإسلام، ولكنهم فشلوا، لأن الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومن تمكن الإسلام من قلبه يستحيل أن يرتدَّ عنه ولو قُطِّع قطعاً.

فالغرب، ورغم محاولات مستمرة ومستميتة لتنصير المسلمين في إفريقيا، إلا أن الإسلام لا يزال هو الدين الأول في إفريقيا، ولا زال الناس إلى يومنا هذا محافظين على دينهم وإسلامهم، رغم فقرهم الشديد، ورغم ما يتعرضون له من ابتزاز واستغلال من أولئك الذين يُسَمَّون بالمبشرين، واسمهم الحقيقي هو: المُنصِّرون.

يقول الدكتور عبد الرحمن السميط – رحمه الله تعالى – : « إن المنصِّرين قد يدفعوا ستة آلاف دولار حتى يُنصِّروا فرداً واحداً، ولكن نحن المسلمين قد ندفع ستة دولارات فيسلم ذلك الوثني ويدخل في دين الله تبارك وتعالى، بذلك المبلغ القليل».

أسباب اختيار الحبشة موضعاً لهجرة أصحاب النبي ﷺ :

الحبشة كانت أحبَّ الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يُهَاجَرَ إليها – كما ورد ذلك عن عروة بن الزبير رضي الله عنه، ورواه الزهري وغيره – [1]، ويمكن استشراف أسباب اختيار النبي ﷺ للحبشة موطناً لهجرة أصحابه فيما يلي:

١- ملكها النجاشي المعروف بعدله وصلاحه.

٢- أنها كانت متجر قريش، فقد كانت قريش تأتيها للتجارة.

٣- أنها كانت على دين المسيحية وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنية.

٤- معرفة الرسول ﷺ بأخبار الحبشة من خلال حاضنته أم أيمن رضي الله عنها، فكان النبي ﷺ يسمع أخبار الحبشة من حاضنته التي تربى في أكنافها، ويسمع من لهجتهم ومن كلامهم، وهذا يؤكد أن النبي ﷺ كان خبيراً بطبائع وأحوال الدول التي في زمانه[2].

فغادر أصحاب رسول الله ﷺ مكة في رجب من السنة الخامسة من البعثة، سنتين في السر، ثم ثلاث سنوات في العذاب والأهوال والشدائد، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة، وكان ذلك عام ستمائة وخمسة عشر من

---

(١) انظر: «المصنف» للإمام عبد الرزاق الصنعاني (٥/ ٣٨٤).

(٢) انظر: «السيرة النّبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث» للصلابي (ص ١٩٢، ١٩٣).

الميلاد (٦١٥م)، وكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة، وقيل: خمس نسوة[١]، وتسللوا في ظلمة الليل وخرجوا إلى البحر ويمَّموا إلى ميناء شعيبة، وهو أقرب إلى مكة من جدة، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مكة، وخرجوا في أثرهم حتى وصلوا البحر، ولكن المسلمين كانوا قد أبحروا متوجهين إلى الحبشة، فقد قيض الله لهم سفينتين تجاريتين أبحرتا بهما إلى الحبشة، في أمن وسلام[٢]، رغم أن المسافة من مكة إلى تلك البلاد تصل إلى ثمانمائة كيلو متر، وجزء كبير منها في البحر، بل أصعبها في البحر، فهي ليست رحلة نزهة، وخاصةً في تلك الأيام التي لم تكن فيها السفن على المستوى الذي هي عليه اليوم، لكن الله جل وعلا حفظ هذه القلة المؤمنة، ووصلت بفضله سبحانه إلى الحبشة.

وكان رئيسهم: ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ، والآخرون هم: عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وعامر ابن ربيعة، وسهيل بن وهب، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم، ومعهم من النساء: رقية بنت النبي ﷺ زوجة عثمان ﷺ، وسهلة بنت سهيل بن عمرو زوجة أبي

(١) انظر: «السيرة النّبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث» للصلابي (ص ١٩٣، ١٩٤).

(٢) انظر: «الرحيق المختوم» (ص ٨٢).

حذيفة، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوجة أبي سلمة قبل أن يموت عنها ويتزوجها بعد ذلك رسول الله ﷺ، وليلى بنت أبي حثمة زوجة عامر بن ربيعة، وأم كلثوم بنت سهل زوجة أبي سبرة[1]. وهجرة النساء ليست بالأمر السهل.

والمتأمل في الأسماء لا يجد فيهم أحداً من الموالي والعبيد، وإنما هم من كبار قبائل قريش، وهذا دليل على أن هجرتهم لم تكن فراراً من الفتنة فقط، وإنما كانت لنشر الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، واحتياطاً لهذا الدين.

والهجرة دليلٌ- أيضاً -: على إخلاص المسلمين وتفانيهم في تمسكهم بإسلامهم ودينهم، حتى لو تركوا بلادهم وأوطانهم فهم متمسكون بدينهم بل ودعاة إليه، تقول أم سلمة رضي الله عنها: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرَهُه»[2].

فمكثوا ثلاثة أشهر، وعادوا في شوال لما أسلم حمزة - عم النبي ﷺ -، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فظنُّوا أن الإسلام قد تمكن في مكة، فعادوا من الحبشة، وسنعود للحديث - بإذن الله تبارك وتعالى - عن إسلام

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٤٠) وقال محققو المسند (٣/ ٢٦٨): إسناده حسن.

حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكم كان لذلك من الآثار العظيمة في عِزِّ الإسلام والمسلمين.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



الهجرة الثانية إلى الحبشة

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، كنا قد وقفنا في حديثنا عن مواقف السيرة المباركة وعبرها وعظاتها، عند عودة الصحابة الذين هاجروا الهجرة الأولى إلى بلاد الحبشة، لما سمعوا وظنوا أن أهل مكة قد دخلوا في الإسلام، فرجعوا ووجدوا أن الأمر ليس كذلك، ولعلَّ من أسباب ذلك: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحمزة رضي الله عنه عم النبي ﷺ، فقد كان إسلامهما حدثاً كبيراً وعظيماً.

فلما رجع أصحاب الهجرة الأولى من الحبشة، ووجدوا أن المشركين لا زالوا على شدتهم وغلظتهم مع المسلمين، استأذنوا رسول الله ﷺ للهجرة مرة أخرى فأذن لهم بها[1]، وهذا من حرصه ﷺ على الفئة المؤمنة من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، فقد خاف النبي ﷺ عليهم من العذاب ومن المذلة ومن المهانة ومن الشدة التي كانوا يتعرضون لها، فإذن لهم النبي ﷺ بالهجرة مرةً أخرى إلى الحبشة، وكانت هذه المرة أشق من المرة الأولى، لأن المشركين متيقظين منتبهين، ومع ذلك يسَّر الله تعالى أمر هجرة المسلمين، وأحبط

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٦)، و«مختصر زاد المعاد» لمحمد بن عبد الوهاب (ص ١٠١، ١٠٢).

مخططات المشركين التي كانت تريد منعها، فخرجوا، ولكنهم في هذه المرة بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً، وثماني عشرة امرأة[1].

وخروج هذه الفئة المؤمنة من مكة إلى الحبشة، فيه رسالة إلى أهل الجزيرة العربية: أن أهل قريش طغوا وبغوا، وأجبروا أهلهم على الخروج والفرار إلى خارج الجزيرة، وقد تأثر العرب بذلك إيجاباً تجاه النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم كانوا أهل كرم وشجاعة وحمية ونخوة، فكيف يُطرد الأهل والأقارب إلى خارج الجزيرة، وكان هذا مما سهَّل دخول بعضهم في الإسلام فيما بعد، عندما استشعر فداحة الظلم الواقع على هذه الفئة المؤمنة، وثباتهم في المقابل على دينهم.

وأراد أبو بكر رضي الله عنه أن يخرج مهاجراً، ولكنه في الطريق التقى برجل من قادة القبائل اسمه ابن الدَّغِنَةِ، فقال له: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب

---

(١) انظر: «عيون الأثر» (١/ ١٣٥)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٤٧٧).

الحق، فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجداً بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاءً، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فأته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن تردَّ إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرتُ في رجل عقدت له، قال أبو بكر: إني أردُّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله[1].

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٣/ ٩٨).

وخرج الصحابة رضوان الله عليهم في هذه الهجرة إلى الحبشة مرةً أخرى، وغاظ المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ولدينهم، فخططوا لطردهم من الحبشة وردِّهم لمكة مرةً أخرى، فأرسلوا رجلين جلدين من قريش إلى النجاشي، وهما عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته[1]، مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدْمُ[2]، فجمعوا له أُدْمَاً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بِطْرِيقاً إلا أهدوا له هدية، قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضَوَى[3] إلى بلد الملك مِنَّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أبصر بهم، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم[4].

---

(١) البطارقة: جمع بطريق، وهو القائد أو الحاذق بالحرب.

(٢) الأُدْم: الجلود، وهو اسم جمع.

(٣) ضوى: لَجَأ ولصق وأتى لَيْلًا.

(٤) أعطوا حاشية الملك والمقربين منه الهدايا والرشا، ليمهدوا للقاء النجاشي، التقوا أولاً بالبطارقة وقدموا لهم الهدايا، وقدَّموا لهم أيضاً الحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون، وانظر إلى هذا الكيد في محاربة دين الله تعالى، وانظر إلى هذا البذل والإنفاق للأموال من الكفار لمحاربة دين الله تعالى، هكذا

ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلَّماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أبصر بهم، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه - أسلوب كله دهاء ومكر، وفيه محاولة للتأثير على نفسية النجاشي-، وقالت بطارقته حوله: صَدَقا أيها الملك، قومهم أبصر بهم، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم- وهكذا المنافقون دائماً وأبداً، وهكذا دائماً أصحاب المصالح، يُبدون الرأي الذي يحقق مصالحهم ولو كان هو الباطل بعينه - فغضب النجاشي، ثم قال: لا والله، لا أسلمهم إليهما، ولا يُكَادُ قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما

هو الكفر في كل زمان ومكان، يفعل المستحيل ليوقف دعوة الله تبارك وتعالى.

علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته[1]، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ﷺ، فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام- فصدَّقناه وآمنَّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك

(١) الأساقفة: علماء النَّصارى الذين يُقيمُون لهم دينهم، واحدهم أَسْقُف، وقد يُقال بتَشْديد الفَاء.

على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك[1]. فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، قالت: فقرأ عليه صدراً من: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[2]، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم[3]، ثم قال لهم النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[4]، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال

---

(١) وانظر إلى هذا الأدب في مخاطبتهم للنجاشي، رغم أنه لا يزال على نصرانيته وكفره وقت هذا الخطاب، ومع هذا لم يتطالوا عليه، ولم يشتموه أو يعيروه بعقيدته المحرَّفة الباطلة، بل احترموه وخاطبوه بما يتناسب مع مكانته وملكه، وهكذا المسلم يحترم الآخرين، ويُنزل الناس منازلهم، ويعطي كل ذي حقٍ حقه، حتى غير المسلم.

(٢) سورة مريم: آية ١.

(٣) وفيهم قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ المائدة: ٨٢ – ٨٣.

(٤) خضراءهم: شجرتهم التي منها تفرعوا.

له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي- والشيوم: الآمنون- من سبَّكم غَرِم، من سبَّكم غَرِم، من سبَّكم غَرِم، ما أُحِبُّ أنَّ لي دَبَراً [1] من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم، رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله منِّي الرِّشوة حين ردَّ علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به[2].

(١) الدبر بلسان الحبشة: الجبل. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٣٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٣٣- ٣٣٨).

والنجاشي من المخضرمين[1]، لأنه آمن بالنبي ﷺ ولم يلتق به ولم يره، وقد صلى عليه النبي ﷺ بعد موته صلاة الغائب.

وبقوا معه في الحبشة إلى أن هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فخرجوا مهاجرين من الحبشة إلى المدينة إلا جعفر بن أبي طالب، وقد تأخر إلى يوم فتح خيبر ، رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) «المخضرمون» هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ في حياته ولم يلتقوا به، ومن المخضرمين أيضاً: الأحنف بن قيس، وسعد بن إياس، وأبو مسلم الخولاني، وحديث المخضرم من قبيل مرسل التابعي.

حصار الشِّعْب

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، كان الحديث توقف بنا في مواقف وعبر من سيرة النبي ﷺ، عند هجرة الصحابة الثانية إلى الحبشة، وكيف أن الله تبارك وتعالى سخر لهم النجاشي رضي الله عنه الذي أسلم وآواهم ونصرهم، فكان هذا الإيواء والنصر سبباً في زيادة الحسد والحقد في نفوس مشركي مكة، فلما رأت قريش أن لأصحاب النبي ﷺ ملجأً في الحبشة، وحاولت ردَّهم من الحبشة ولم تستطع، ورأت إسلام عمر بن الخطاب، وحمزة ابن عبد المطلب، وإقبال الكثيرين بعد ذلك على الدخول في الإسلام، عند ذلك عزموا على قتل النبي ﷺ جهاراً نهاراً، فلما امتنع منهم أبو طالب ورفض أن يسلمهم رسول الله ﷺ ليقتلوه، تعاقد عند ذلك المشركون وتعاهدوا على المقاطعة الكاملة لكل من يؤوي وينصر محمداً ﷺ، فأمر أبو طالب أبناءه وأقاربه أن يدخلوا في شِعْبه، ويحموا رسول الله ﷺ من أن تمتد إليه يد المشركين الظالمين، رغم كفر بعضهم، ولكنهم ناصروا رسول الله ﷺ حميةً وأنفةً، ودخل في الشِّعب أيضاً: الذين آمنوا من غير بني هاشم وبني عبد المطلب، وكتب المشركون

بذلك كتاباً: ألا يزوجوهم، ولا يبيعوا ولا يشتروا منهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا تأخذهم رأفةً فيهم ولا رحمة[1].

عقد خبيث لئيم ككل العقود والمواثيق الخبيثة التي بنيت على المؤامرات والمكائد، وما أكثر تلك المكائد التي تحاك ضد المسلمين في كل زمان ومكان، ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والخبث والمكر واضحٌ في هذا العقد وتلك الصحيفة، فهم لا يسمحون بالتزاوج بينهم وبين أحد من أهل النبي ﷺ الذين ناصروه ولا من المؤمنين به، لأن الزواج مدعاة إلى الألفة والتقارب والرحمة، فمنعوا التزاوج حتى لا يحصل ذلك، كما منعوا البيع والشراء لهم ومنهم، وهذا حصار اقتصادي، حتى يستسلموا ويرضخوا ويسلموا رسول الله ﷺ طواعيةً، ولا يدخلوا عليهم ولا يجالسوهم حتى لا يتأثروا بحالهم، ولا يقتنعوا بأفكارهم، مؤامرة محكمة.

فلبث النبي ﷺ في هذا الشعب ثلاث سنين، حصار شديد، أنفق النبي ﷺ فيه ماله، وأنفقت خديجة رضي الله عنها مالها، وأنفق أبو بكر ماله، وأنفق الصحابة أموالهم حتى نفذت أموالهم، واضطروا إلى أكل أوراق الشجر، وكان بعض المشركين- ممن فيهم الشهامة والرجولة- يأتي بالإبل محملة

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٥٩).

بالأرزاق، ثم يضربها فتدخل بدون قائد إلى داخل الشِّعب حتى يُقدِّم لهم ما يستطيع من غوث ونجدة.

هذا الحصار الشديد جاء في قمة الابتلاءات التي مرت على المسلمين وعلى أصحاب النبي ﷺ في مكة رضوان الله تعالى عليهم، والحصار يعتبر خطة شيطانية قديمة حديثة، فلا يزال أعداء الإسلام إلى اليوم يستعملونه ضد المسلمين، فيحاصرون دولاً بأكملها، يجوعون شعوبها، ويمنعون عنهم مقومات الحياة من غذاء ودواء وطاقة وغيرها من ضروريات الحياة، ولا يسمحون إلا بالنذر اليسير، تركيعاً لتلك الدول لتتبع سياساتهم، وتعرض عن دينها وشريعة ربها.

وكان الوليد بن المغيرة لشدة كراهته للإسلام، يقول للمشركين: من رأيتموه – يعني من أتباع النبي ﷺ وأنصاره- عند طعام يشتريه فزيدوا عليه، وحولوا بينهم وبينه، ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعليَّ النقد، ففعلوا ذلك ثلاث سنين، حتى بلغ القوم الجهد الشديد، وحتى سمعوا أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب، وكان المشركون يكرهون ما فيه بنو هاشم من البلاء، حتى كره عامة قريش ما أصاب بني هاشم، وأظهروا كراهيتهم لتلك الصحيفة الظالمة، وكان أبو طالب يخاف أن يغتالوا رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه أو رقد بعثه أبو طالب عن فراشه، وجعله بينه وبين بنيه خشية أن يقتلوه؛ وتصبح قريش فيسمعوا من الليل أصوات صبيان

بني هاشم الذين في الشِّعب يتضاغون من الجوع، فإذا أصبحوا جلسوا عند الكعبة فيسأل بعضهم بعضاً، فيقول الرجل لصاحبه: كيف بات أهلك البارحة؟ فيقول: بخير، فيقول: لكن إخوانكم هؤلاء الذين في الشعب بات صبيانهم يتضاغون من الجوع حتى أصبحوا، فمنهم من يعجبه ما يلقى محمد ﷺ ورهطه، ومنهم من يكره ذلك[1].

وممن كره ذلك، وكان يساعد النبيَّ ﷺ ومن معه في الشعب: هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث؛ فكان يأتي بالبعير محملاً بالطعام- وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً- حتى إذا أقبل به إلى مدخل الشعب، خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشِّعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بَزّاً أو بُرّاً، فيفعل به مثل ذلك[2].

وخرج حكيم بن حزام يوماً ومعه إنسان يحمل طعاماً إلى عمته خديجة، زوجة رسول الله ﷺ، وهي معه في الشعب، إذ لقيه أبو جهل فقال: تذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عند قريش، فقال له أبو البختري بن هاشم: تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده، فأبى أبو جهل أن يدعه، فقام إليه أبو البختري بساق بعير فشجه

---

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٦٠).

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٧٤، ٣٧٥).

ووطئه وطئاً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريباً يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم[1].

وهكذا في كل زمان ومكان، لن تُعْدَم شريفاً وشهماً حتى ولو كان كافراً، فليس كل الكفار أعداء لنا، وإنما منهم العدو الكاره لديننا المحارب لنا، ومنهم المسالم الذي لا يحاربنا ولا يعادينا، فمثل هذا لا ينبغي لنا أن نعاديه، بل نبره ونقسط إليه كما أمرنا بذلك ربنا، فعلى المسلم أن يكون عاقلاً منصفاً في تعاملاته حتى مع الكفار، وعليه أن يكسب أصدقاء من غير المسلمين، ولا يستعدي كل الناس عليه، فإن الجاهل من يتخذ كل الناس أعداء، والعاقل من يكون له حتى من غير المسلمين أصدقاء عقلاء حكماء قد ينفعونه وقت الشدة والضيق، وهكذا كان النبي ﷺ يعامل الناس ويتعامل معهم بهذه الحكمة، وبهذا الأسلوب عليه الصلاة والسلام، بل لعل في ذلك أيضاً: اختراق لصفوف غير المسلمين، فنكسب دعوتهم، ويمكننا التأثير فيهم من خلال الاختلاط بهم، ورؤيتهم لأخلاقنا وتعاملاتنا، مما يساهم في انتشار الإسلام بإذن الله تبارك وتعالى، أما إذا اعتزلنا غير المسلمين اعتزالاً كاملاً، فمن يدعوهم، ومن يريهم أخلاق أهل الإسلام ومحاسن دين الإسلام.

---

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ١٦١).

وبعد مرور هذه السنوات الثلاث العجاف، والصحابة صابرون طائعون للنبي ﷺ، لأنه أمرهم بالصبر وعدم القتال، وإلا فإن عمر بن الخطاب كان موجوداً، وحمزة كان موجوداً، وغيرهما من كبار الصحابة الذين لا يرضون بهذا الظلم، ولكنهم صبروا امتثالاً لأمر النبي ﷺ.

ثم إن هشام بن عمرو بن ربيعة – الذي ذكرت شهامته ومساعدته للمسلمين قبل قليل- سعى في نقض تلك الصحيفة الجائرة، فمشى إلى زهير ابن أبي أمية بن المغيرة، فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجلٌ آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال: قد وجدت رجلا قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال:

أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعاً، فذهب إلى البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم ابن عدي، وأنا معك، قال: أبغنا خامساً، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم.

فاتعدوا خَطْمَ الحَجُون[1] ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على نقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تُشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها،

(١) الحجون: موضع بأعلى مكة. وخطمه: مقدمه.

ومما كُتِب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشوور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم»[1].

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلَّط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فو الله ما يدخل عليك أحدٌ، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلُمَّ صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عمَّا فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً، فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[2].

وعند ذلك خرج المسلمون من حصارهم، وكان ذلك نصراً لهم، فهذا الحصار مع ما فيه من الأذى للمسلمين، إلا أنه كان نصراً وفتحاً من جهة

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٧٥، ٣٧٦)، و«الروض الأنف» (٣/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٧٦)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٢٦٦).

أخرى، فقد كان الناس في جزيرة يتحدثون عن هذا الظلم، لماذا يحاصر هؤلاء، وكيف يصبرون على الجوع والعطش، ولماذا يتحملون كل هذا الظلم والإقصاء والحصار، فلا بد أنهم على الحق والصدق والعدل، إذ لو لم يكونوا كذلك لما صبروا وتحملوا كل هذا الظلم والقطيعة والبغي لسنوات، فكان هذا الحصار قوةً للدعوة الإسلامية، وقوةً للإسلام، وإذا بالإسلام ينتشر أكثر وأكثر بعد هذا الحصار، ويدخل كل بيت بأمر الله تبارك وتعالى، وهذا من حكمة الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الظروف الصعبة التي تصيب المؤمنين والمسلمين.

والحصار اشتمل على فائدة أخرى، وهي تربية الجيل المؤمن على التعالي على الدنيا، والتعالي على المال، والتعالي على المناصب، والتعالي على الشهوات، هذا الابتلاء والاختبار صفَّى تلك الفئة المؤمنة، وارتقى بها عن متاع الدنيا الفاني إلى رحابة الدار الآخرة، فلما فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وعرضت لهم صنوف الأموال من الذهب والفضة، وعرضت عليهم المناصب، مالوا عنها، ولم يتأثروا بها، ولم يغتروا بها، بسبب ما تربوا عليه في تلك الأيام العصيبة، وفي تلك المواقف التي عرفتهم قيمة الحياة الدنيا وحجمها الحقيقي، فعرفوا أنها وسيلة وليست غاية، فكان هذا الامتحان

والابتلاء تقوية وصقل وقوة للصف المؤمن الذي أعده الله لنشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



يأس المشركين وعنادهم تجاه رسول الله ﷺ

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زال الحديث متواصلاً عن سيرة النبي المصطفى ﷺ، وما فيها من العبر والعظات، وكنا قد تحدثنا في لقاءات سابقة عن المفاوضات والمساومات- بعد التعذيب والتهديد والإيذاء-، واليوم نتحدث عما دهى المشركين من أهل مكة حتى فقدوا صوابهم وأخذوا يهرفون بما لا يعرفون، ويتكلمون بكلام لا تقبله العقول السليمة، مما يدل على يأسهم وتخبطهم.

لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد رفض ما عرضوه عليه من المساومات والعروض التي ذكرناها في خطب سابقة، قالوا: يا محمد، إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحدٌ أضيق منا بلاداً، ولا أشد منا عيشاً، فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال فقد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، ويفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا - يعني: الذين ماتوا - وليكن منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً - أفلم يكن محمدٌ ﷺ شيخاً صدوقاً بإقرارهم جميعاً؟!- فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك صدقناك. فقال رسول الله ﷺ: «**ما بهذا بعثت، فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوه مني فهو حظكم في**

الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر لأمر الله».قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك، واسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه[1]. فقال: «**ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً**». قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك لو شاء فعل. فقال: «**ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم فعله**». وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية – وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب – فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا عليك فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً يعرفون بها منزلتك من الله تعالى فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فو الله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً ترقى فيها وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة

(١) مع أن هذه آية وعبرة أن الله ﷻ بعث نبياً بشراً حتى يكون قدوةً للناس، وحتى يكون في مقدور الناس أن يقتدوا به وأن يتأسوا به، فأما لو كان ملكاً، فمن هذا الذي يتأسى بملك أو يقتدي بملك في شؤونه وأمور حياته كلها، فالله ﷻ جعله رسولاً بشراً، وجعله أمياً، وفي ذلك عبرة، كما أنه لم يجعله غنياً، وفي ذلك عبرة أيضاً: فالله تبارك وتعالى لم يجعل الرسالة لصاحب المال، فالمال عرض زائل، ولم يكن في يومٍ من الأيام سبب السعادة الحقيقية، وإنما هو وسيلة لا غاية، وأما الغاية فهي مرضات الله تبارك وتعالى.

يشهدون لك بما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك.

فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

وهذا الذي فعله المشركون سفهٌ وتعجيزٌ، واستهزاء وسخرية بالنبي ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[2]، أي: أن الله سبحانه أرسل بشراً رسولاً للبشر، ولو

---

(١) الإسراء: ٩٠ - ٩٣، وانظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٢٩، ١٣٠)، وقوله تعالى: ﴿من الأرض﴾ يعني: أرض مكة ﴿ينبوعاً﴾ أي: عيوناً.

(٢) الإسراء: ٩٣ - ٩٥ .

أراد أن ينزل ملكاً لأنزله على الملائكة، ليكون قدوةً لهم، حتى يتمكن الإنسان أن يقتدي بالإنسان، والملك يقتدي بالملك.

ومن الحكمة في عدم إجابة الله سبحانه وتعالى لهم لهذه الطلبات:

أولاً: أنهم لم يسألوها مسترشدين، وإنما سألوها متعنتين مستهزئين، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[1].

وثانياً: من سنة الله تبارك وتعالى أنه إذا طلب قومٌ آيةً من الآيات فأجابهم الله بهذه الآية فلم يؤمنوا، أنه يستأصلهم ويفنيهم، كما فعل بقوم عاد وثمود وقوم فرعون، فعدم إجابتهم لما طلبوا خيرٌ لهم، لأن الله سبحانه لو أجابهم فلم يؤمنوا لأبادهم واستأصلهم كما أباد الأمم التي كانت من قبلهم.

ولما أعيت الحيل قريشاً ولم تجد ما تدفع به دعوة الحق، بعثت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم

---

(١) الأنعام: ١١١.

أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا: فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أخبركم غداً بما سألتم عنه**». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل- عليه السلام -، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل- عليه السلام - من عند الله، عز وجل، بسورة الكهف، وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من

أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

ويكشف أبو جهل عن وجهه القبيح، وعن دافعه الحقيقي في رفض الإيمان بالنبي ﷺ، وأنه الحسد والكبر.. فقد ذكر أهل السير: أن الأخنس بن شريق، أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته، وسأله عن النبي ﷺ ودعوته، فقال له أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكُنَّا كفرسي رهان، قالوا: مِنَّا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه[2].

وورد في رواية أن الأخنس التقى بأبي جهل، فخلا به وقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجاب

---

(١) الإسراء: ٨٥، وانظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٦)، و«سيرة ابن إسحاق» (ص ٢٠٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، و«سيرة ابن إسحاق» (ص ١٩٠).

والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟. فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1]، فآيات الله: محمد ﷺ[2].

قال ابن إسحاق: فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه، فحال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر فقال قائلهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[3]، أي: اجعلوه لعباً وباطلاً، واتخذوه هزواً، أي: لعلكم تغلبون، تغلبوه بذلك، فإنكم إن وافقتموه وناصفتموه غلبكم، فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون أن يسمعوا له، وكان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي استتر واستمع دونهم، فرقاً منهم، فإن رأى أنهم عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع[4].

---

(١) الأنعام: ٣٣.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٢).

(٣) فصلت: ٢٦.

(٤) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص ٢٠٦).

فالإيمان بالنبي ﷺ عند أبي جهل وأمثاله، تتحكم فيه العصبية الجاهلية، والقبلية والزعامة الممقوتة، ولذا ينبغي على المسلمين في كل زمانٍ ومكان أن يتخلصوا من تلك الزعامات والانتماءات المختلفة، وألا يجعلوا انتمائهم إلا للإسلام، فدين الله تبارك وتعالى هو الذي يجمع القلوب، ويؤلف بين النفوس، ويوحد الصفوف.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



عام الحزن

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، كنا قد وقفنا في الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ، عند حصار الشِّعب، وكيف أن النبي ﷺ وأصحابه وبني هاشم حُبِسُوا في ذلك الشِّعب ثلاث سنين حتى أكلوا أوراق الشجر ، حتى يسَّر الله تبارك وتعالى لهم الخروج منه، وشاءت حكمة الله تبارك وتعالى بعد هذا الحدث بستة أشهر، أن يتوفى الله تبارك وتعالى عمَّ النبي ﷺ أبا طالب، وكأن المآسي والمحن والمصاعب تتوالى وتتتابع على رسول الله ﷺ، وكلما اشتدت المحن وزادت كلما قرب الفرج، كمثل ظلام الليل، كلما اسودَّ ظلام الليل كلما آذن بطلوع الفجر، وقديماً قال الشاعر:

اشـــتدي أزمـــة تنفرجـــي قـــد آذن ليلـــك بـــالبلج

ولما حضرت أبا طالب الوفاة – وأبو طالب كان يحوط النبي ﷺ وينصره رغم كفره وشركه – دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «**أي عَمّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يُكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك، ما لم أُنْهَ عنك**» فنزلت: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ**

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1]، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[2].

وتأمل كيف كان قول أبي جهل، وعبد الله بن أبي أمية، سبباً في موت أبي طالب على الكفر، ونأخذ من هذا أن الإنسان عندما يكون أصدقاؤه والمقربون منه من أمثال هؤلاء الطواغيت، ومن أمثال هؤلاء المجرمين الكفار، فإنه لا يؤمن عليه أن يأخذوه إلى مستنقع الكفر والشرك، فالمرء على دين خليله.

وثبت عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنه سمع النبي ﷺ، وذُكِر عنده عمه، فقال: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضَحْضَاحٍ من النار يبلُغ كعبيه، يغلي منه دماغُه**»[3].

وسبب ذلك هو موته على الكفر والشرك، فرغم نصرته للنبي ﷺ ودفاعه عنه، إلا أنه يُعذب بهذا العذاب الشديد، وهو على شدته أهون من غيره بكثير، فهو لا يُعذب بدخول كامل جسده في النار، بل النار تبلغ كعبيه فقط، لأجل شفاعة النبي ﷺ.

---

(١) التوبة: ١١٣.

(٢) القصص: ٥٦ ، والحديث رواه البخاري (٣٨٨٤).

(٣) رواه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

وهذا يدلنا على خطورة الشرك، وقد قال الله جل وعلا: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا** ﴾[1]، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرَّب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة**»[2].

وبعد شهرين أو ثلاثة توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وكانت وفاتها في رمضان، ووفاة عمِّه أبي طالب في رجب من السنة العاشرة من النبوة، لذلك سُمِّي هذا العام بعام الحزن، لتتابع الأحداث المؤلمة والعنيفة والصعبة على رسول الله ﷺ، فدفنها ﷺ في الحجون، وكان عمرها خمساً وستين سنة، وكان عمره عليه الصلاة والسلام خمسين عاماً، ومكث وعاش معها خمساً وعشرين سنة، لم يتزوج عليها رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٧).

ومما ورد في فضلها، ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسن الثناء، قالت: فغِرْتُ يوماً، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها، قال: «**ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء**»[2].

وبعد أن تُوفيتُ خديجة بنت خويلد، وأبو طالب، تتابعت على رسول الله ﷺ المصائب، ونالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياتهما، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه التراب، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢)، و(صخب) هو الصوت المختلط المرتفع. (نصب) هو المشقة والتعب.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٤٨٦٤) وقال محققو المسند (٤١/ ٣٥٦): حديث صحيح.

تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تبكي يا بنية، فإنَّ الله مانع أباك**» يقولها عليه الصلاة والسلام وكله أمل، وكله ثقة في نصر الله الذي لا يتخلف، ويقول: «**ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب**»[1].

وفي شهر شوال سنة عشر من النبوة، وبعد هذه الشدائد المتتابعة، انطلق النبي ﷺ إلى خارج مكة، ليدعو إلى الله تبارك وتعالى، فلعله أن يجد مجيباً، فذهب إلى الطائف ماشياً على قدميه ذهاباً وعودة، وكان لذلك حكمة، وهي: ألا يظن مشركو مكة أنه يريد الهجرة والخروج فيمنعوه، فخرج ﷺ للطائف، وكان كلما مَرَّ على قبيلةٍ في الطريق دعاهم إلى الإسلام فلم يجبه أحد، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط[2] ثياب الكعبة إن كان الله

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤١٦)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ١٢٣).

(٢) يمرطه: أي ينزعه ويرمي به.

أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك!، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلِّمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من ثقيف، وقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيثيرهم ذلك ويجرئهم عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني**[1]**؟ أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن**

(١) تجهمه: استقبله بوجه كريه.

تنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

هكذا توجه إلى ربه تبارك وتعالى، وهكذا المؤمن عندما تشتد به المحن، وتنزل به البلايا يلجأ إلى الله تبارك وتعالى ربه وخالقه، فهو الناصر وهو المعين سبحانه.

فلما رآه ابنا ربيعة، عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت له رحمهما[2]، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له: عداس، فقالا له: خذ قِطْفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: «**باسم الله**»، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «**ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟**» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نِينَوى، فقال رسول الله ﷺ: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**»، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي**»، فأكب عداس

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨١)، وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٢٩٣٣)، و«ضعيف الجامع الصغير» (١١٨٢).

(٢) الرحم: الصلة والقرابة.

على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه ويديه وقدميه، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تُقَبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[1].

وتأمل قول النبي ﷺ عندما أراد أن يأكل العنب: «**بسم الله**»، ثم تأمل كيف تأثر النصراني عداس بسماعه لتلك الكلمة اليسيرة، وكيف أنها حركته للسؤال عن الرسول ﷺ وعن الإسلام، بل ورد أنه أسلم، ونأخذ من هذا أن المسلم لا يستهين بأي تصرف يخدم به دينه مهما صغر، حتى ولو بمجرد كلمة، وكم أسلم من غير المسلمين عندما رأى المسلمين وهم يصلون!، وكم أسلم من غير المسلمين عندما رأى المسلمين يتوضؤون، وكم أسلم من غير المسلمين عندما يرون مشهد مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وعندما يرون الكعبة والناس يطوفون حولها، أشياء ومواقف قد يراها البعض صغيرة، ولكن لها أثر كبير في نفوس الكثيرين من غير المسلمين، فلا تبخل أيها المسلم أن تقف موقفاً لله تعالى ربما يكون سبباً في هداية شخص أو أكثر من غير المسلمين، لا تستحي أن تصلي في بلاد الكفار حيث لا يوجد كثير من

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤١٩ - ٤٢١).

المسلمين، ولا تستحي أن تذكر الله تبارك وتعالى وأن تجهر بذلك، أو أن تجهر بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) أمام الكفار، لا تخجل ولا تستحي فلعل ذلك منك يكون سبباً في هداية بعضهم إلى الله تعالى، ولنا في رسول الله ﷺ عبرة وعظة، فها هو يعلن إيمانه وتوحيده لربه في كل مكان، ويجهر بدعوته إلى الله تعالى لكل أحد من الناس.

وبعدها غادر النبي ﷺ الطائف حزيناً مهموماً من جراء ما أصابه من سفهاء أهلها، وهنا أذكر حديث عائشة رضي الله عنها وقد حدثت عن ذلك الموقف فقالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدَّ عليك من يوم أُحُد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب**[1]**، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني**

(١) اسم موضع بقرب مكة وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير والثعالب جمع ثعلب وهو الحيوان المشهور ولعله سمي الموضع بذلك لكثرة الثعالب فيه.

بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1]؟» فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً**»[2].

وتأمل ذلك الموقف العصيب، الرسول عليه الصلاة والسلام أوذي وضرب بالحجارة واستُهزأ به ورُدَّت عليه دعوته بكل صلف وكبر، وهو عائد كله تعبٌ وهمٌّ، والملك يخبره أنه طوع أمره، لو أراد أن يطبق على المشركين الجبال ويفنيهم لفعل، ومع هذا لم يفعل ﷺ لأنه جاء رحمةً للعالمين، ما كان منه إلا أن قال: لا، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يشهد أن لا إله إلا الله ويعبد الله وحده لا شريك له، وصبر النبي ﷺ حتى هدى الله تعالى على يديه الآلاف من المشركين، وهكذا ينبغي للداعية أن يتعلم من النبي ﷺ الصبر، فيصبر في دعوته ولا يتعجل، فإن الهداية بيد الله تبارك وتعالى .

ثم سار عليه الصلاة والسلام مكملاً طريقه إلى مكة، حتى وصل إلى وادي نخلة[3] فنزل بها عليه الصلاة والسلام، وقام من جوف الليل يصلي، فمرَّ به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم سبعة نفر من جن

---

(١) الأخشبين: جبلي مكة؛ أبي قبيس ومقابله قعيقعان، سُمِّيا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما، يقال: رجل أخشب إذا كان صلب العظام قليل اللحم.

(٢) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٣) نخلة: أحد واديين على ليلة من مكة، يقال لأحدهما نخلة الشامية، وللآخر نخلة اليمانية. وهي الزيمة اليوم.

أهل نصيبين[1]، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصَّ الله خبرهم على نبيه ﷺ ، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾[3]، إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة[4] .

وانظر إلى الجن وتأمل فعلهم، سمعوا، ثم آمنوا، ثم انطلقوا إلى قومهم دعاة إلى الله تعالى، وهكذا ينبغي على المسلم أن يكون داعياً إلى الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[5]، وليس المسلم الحقيقي هو الذي يصلى

---

(١) نصيبين: قاعدة ديار ربيعة.

(٢) الأحقاف: ٢٩ - ٣١ .

(٣) الجن: ١ .

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢١، ٤٢٢).

(٥) آل عمران: ١١٠ .

ويصوم ويزكي ويحج فقط، وإنما المسلم الحقيقي الذي يدعو إلى الله تعالى، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

لقد كانت هاتان الحادثتان، حادثة جبريل ومعه ملك الجبال وعرضه على النبي ﷺ أن يطبق جبال مكة على المشركين، وحادثة إيمان نفر من جن نصيبين، كانتا بمثابة شدٍّ أزر النبي ﷺ، والتقوية من عزيمته، وتثبيته على الحق وسط هذه البلايا والصعاب التي تمر به ﷺ.

ولما أراد النبي ﷺ دخول مكة، قال له زيد بن حارثة رضي الله عنه: كيف تدخل مكة وقد أخرجوك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**يا زيد، إن الله جاعل لي لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دينه ومظهر نبيه**»[1].

ستتغير الأيام، وتتبدل الأحوال، ويأتي النصر بإذن الله، تأمل ذلك النظر البعيد لرسول الله ﷺ، لا ينظر تحت قدمه، ولا ينظر إلى الماضي وإلى الوراء، بل ينظر إلى الحاضر، وإلى المستقبل البعيد، وهكذا ينبغي دائماً للمسلم العاقل، أن يكون ثاقب النظر، وينظر إلى عواقب الأمور.

كان النبي ﷺ مطمئناً غاية الاطمئنان لنصر ربه وتأييده، رفض أن يستأصل المشركين الذين ناصبوه العداء، ورفض اقتراح زيد بأن يهاجر

---

(١) انظر: «إمتاع الأسماع» للمقريزي (١/ ٤٦)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٤٤٠)، و«السيرة الحلبية» (١/ ٥٠٧).

ويسيح في الأرض ولا يدخل إلى مكة، وأصرَّ ﷺ على الدخول إلى مكة، ولكنه دخلها في جوار المطعم بن عدي، والمطعم من الذين نقضوا الوثيقة الظالمة الجائرة في حصار الشعب، وكان من كبار رجالات قريش، ولكنه كان على الشرك والكفر، فطلب النبي ﷺ أن يدخل مكة في جواره وحمايته، فوافق، وتسلَّح ودعا أبناءه وقرابته فتسلَّحوا، ووقفوا عند أركان البيت، وأعلن المطعم لقريش أنه قد اجار محمداً. تسخير من الله تبارك وتعالى، فدخل عليه الصلاة والسلام إلى مكة تحت السلاح محمياً محفوظاً ومعه زيد ابن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام فقبل الحجر الأسود ثم صلى لله ركعتين ثم عاد إلى بيته عليه الصلاة والسلام[1].

وهكذا دارت الأيام واشتدت المحن على رسول الله ﷺ، عند ذلك كانت حادثة الإسراء والمعراج التي نذكرها بإذن الله تبارك وتعالى في جمعةٍ قادمة.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» (ص ٢٢٩).



أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نواصل حديثنا عن السيرة المباركة العطرة، وكنا قد توقفنا في الكلام عند رحلة النبي ﷺ إلى الطائف، وما حصل له فيها عليه الصلاة والسلام من الإيذاء والابتلاء، وما كان قبل ذلك في عام الحزن عندما توفيت زوجته خديجة رضي الله عنها، وعمُّه الذي كان يحفظه ويعينه، وكان ذلك بعد ثلاث سنوات من الحصار في الشِّعب، فكانت سنوات عسيرة وصعبة على الحبيب المصطفى ﷺ، فأراد الله ﷻ أن يكافئ حبيبه عليه الصلاة والسلام، وأن يُثبِّت قلبه وإيمانه، وأن يكافئه على صبره، وأن يكرم أمته عليه الصلاة والسلام، فكان الإسراء والمعراج الذي سطره القرآن العظيم وأثبته بقوله تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1]، سجَّل القرآن هذه الحادثة العظيمة الجليلة تكريماً لرسول الله ﷺ، وهكذا كل مؤمن وكل مسلمٍ يصبر على بلاء الله تبارك وتعالى، فإن الله ﷻ يكافئه على صبره ويكرمه.

---

(١) الإسراء: ١.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فُرِجَ عن سقفِ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ﷺ، ففَرَجَ**[1] **صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بِطَسْتٍ من ذهب مُمتلِئٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه**»[2]، فكانت هذه العملية تهيئة من الله تبارك وتعالى للعوالم العظيمة التي سيقدم عليها النبي ﷺ .

وروى البخاري ومسلم من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**وأتيت بدابةٍ أبيضَ، دون البغل وفوق الحمار، يُقال له: البُرَاق، يقع خَطْوُهُ عند أقصى طرفه**» سرعة هائلة «**فحُمِلتُ عليه، ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا**» عُرِجَ به عليه الصلاة والسلام من المسجد الأقصى إلى السماوات العُلى، بين الكواكب وبين النجوم، وبين آيات الله تبارك وتعالى «**فاستفتح جبريل ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد** ﷺ، **قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم** » وهذا يدل على أن أهل السماء لا يعلمون عن أهل الأرض إلا بما علَّمهم الله تبارك وتعالى «**قال: ففتح لنا، وقال: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: فأتينا على آدم** ﷺ، **فسلَّمت عليه، فقال: مرحباً بك من ابن ونبي، فأتينا السماء الثانية، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال:**

---

(١) (فرج) فتح فيه فتحة.

(٢) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) .

محمد، قيل: أُرْسِلَ إليه، قال: نعم، قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على عيسى، ويحيى فقالا: مرحباً بك من أخ ونبي، فأتينا السماء الثالثة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على يوسف، فسلَّمت عليه قال: مرحباً بك من أخٍ ونبي، فأتينا السماء الرابعة، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قيل: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إدريس، فسلَّمت عليه، فقال: مرحباً بك من أخ ونبي، فأتينا السماء الخامسة، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قيل: نعم، قيل: مرحبا به ولنعم المجيء جاء، فأتينا على هارون فسلَّمت عليه، فقال: مرحباً بك من أخٍ ونبي، فأتينا على السماء السادسة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أُرسِلَ إليه، قيل: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على موسى، فسلَّمت عليه، فقال: مرحباً بك من أخٍ ونبي، فلما جاوزت بكى، فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بُعِثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي» وليس في ذلك حسد، وإنما كان ذلك حُزناً على أُمَّته التي كفرت وضاعت وضلَّت عن هداية الله تعالى، ودليل حب النبي موسى -عليه السلام- لهذه الأمة ولنبيها ﷺ، أنه هو الذي أمر نبينا محمداً ﷺ بالرجوع إلى ربه وسؤاله التخفيف في الصلوات

المفروضة، قال: «**فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قيل: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه، فقال: مرحباً بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم، ثم أُتِيتُ بإناءين أحدهما خمر، والآخر لبن، فعرضا علي فاخترت اللبن، فقيل: أصبت أصاب الله بك، أمتك على الفطرة، ورفعت لي سدرة المنتهى**[1]**، فإذا نبقها**[2]** كأنه قلال هجر**[3]**، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار نهران باطنان، ونهران ظاهران، فسألت جبريل، فقال: أما الباطنان ففي الجنة**[4]**، وأما الظاهران: النيل والفرات**[5]**، ثم فُرِضَتْ عليَّ خمسون صلاة، فأقبلت حتى جئت موسى، فقال: ما صنعت؟**

---

(١) (سدرة المنتهى) السدرة واحدة السدر، وهو نوع من الشجر، وأضيفت إلى المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها ولا يجاوزها - وقيل غير ذلك- وهي في السماء السابعة، وقيل: أصلها في السادسة وأكثرها في السابعة.

(٢) (نبقها) أي: ثمرها.

(٣) (قلال) جرار معروفة ومعلومة القدر عند المخاطبين، وتقدر القلة بمائة لتر تقريباً. و(هجر) مدينة في اليمن.

(٤) قيل: هما السلسبيل والكوثر.

(٥) أخذ بعض العلماء من هذا: أنها بشارة للنبي ﷺ بأن الإسلام سينتشر في هذه البلاد، بلاد نهر الفرات وبلا نهر النيل، وأن أهلها سيكونون أنصاراً للإسلام والمسلمين.

قلتُ: فرضت علي خمسون صلاة، قال: أنا أعلم بالناس منك، عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، وإن أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربك، فسله، فرجعت، فسألته، فجعلها أربعين، ثم مثله، ثم ثلاثين، ثم مثله فجَعَلَ عشرين، ثم مثله فجعَل عشراً، فأتيت موسى، فقال: مثله، فجعلها خمساً، فأتيت موسى فقال: ما صنعت؟ قلت: جعلها خمساً، فقال مثله، قلت: سلمت بخير، فنودي إني قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشراً»[1].

وفي رواية: «**فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلم**»[2].

وفرض الصلاة في السماوات العليا يدل على فضل الصلاة وشرفها، فهي عظيمة القدر، ولذا فرضت في الأعلى، وهي فرج من الله تبارك وتعالى لما أصاب الرسول ﷺ من الهم والغم والبلاء والتعب، ولهذا كان يقول ﷺ: : «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**»[3]، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿**وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ**

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٧).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني في«صحيح الجامع الصغير وزياداته» (٢٩٨٦).

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1]، فالصلاة فيها العون للمؤمن، وفيها الخروج من الهم والنكد والتعب والضيق، الصلاة فرجٌ للمسلمين في كل زمان وفي كل مكان بإذن الله تعالى.

وعن جابر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**مررت ليلة أسري بي بالملإ الأعلى، وجبريل كالحِلْسِ البالي من خشية الله عز وجل**»[2].

ورأى رسول الله ﷺ في ذلك المقام الرفيع جبريل - عليه السلام - على هيئته وله ستمائة جناح[3].

وعرج بالنبي ﷺ حتى وصل لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام[4] وهي تكتب في اللوح المحفوظ ما قدره الله تبارك وتعالى في كونه وعلى عباده[5].

---

(١) البقرة: ٤٥ .

(٢) رواه الطبراني في«المعجم الأوسط» (٤٦٧٩)، وصححه الألباني في«صحيح الجامع الصغير» (٥٨٦٤).

(٣) رواه مسلم (١٧٤) عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٤) (صريف الأقلام) أي: صوتها حين الكتابة، أي: أسمع صوت ما تكتبه الملائكة من قضاء الله ووحيه وتدبيره.

(٥) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ في قصة المعراج، وفيه قال رسول الله ﷺ : «**ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**».

رفع الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ مقامات ودرجات عالية، وقربه وأدناه وكرَّمه عليه الصلاة والسلام.

وعن أبي ذر ﷺ، قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنى أراه**»[1]، وفي رواية: «**رأيت نوراً**»[2].

ومن جملة ما رآه النبي ﷺ: مالك خازن النار[3]، رآه وهو لا يضحك، وليس في وجهه بِشْرٌ ولا بشاشة.

ورأى النبي ﷺ قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وُكل بهم من يأخذ بمشارفهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، وعندما سأل جبريل عنهم، قال له جبريل: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً؛ إنما يأكلون في بطونهم ناراً[4].

ورأى النبي ﷺ قوماً بين أيديهم لحم في قدر نضيج، ولحم آخر نيءٌ خبيث، فجعلوا يأكلون الخبيث ويدعون النضيج الطيب. فقال: «**يا جبريل، من هؤلاء؟**» قال: الرجل من أمتك يقوم من عند امرأته حلالاً، فيأتي المرأة

---

(١) رواه مسلم (٢٩١).

(٢) رواه مسلم (٢٩٢).

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٥).

(٤) رواه ابن جرير في«التفسير» (٤/ ١٨٤)، والآجري في«الشريعة» (١٠٢٧) وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٥٤٥٩).

الخبيثة، فيبيت معها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتي الرجل الخبيث فتبيت عنده حتى تصبح[1].

ورأى عذاب الذين يغتابون الناس فإذا لهم أظافر من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم[2]، والعياذ بالله تبارك وتعالى.

وعاد النبي ﷺ إلى مكة في نفس الليلة بعدما رأى من آيات ربه الكبرى ودلائل قدرته العظمى ما رأى في تلك الرحلة المباركة مما قوَّى به فؤاده وزاده رسوخاً وثباتاً.

فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه وأخبرهم بما أراه الله ﷻ من آياته الكبرى؛ اشتد تكذيبهم له، واشتد أذاهم وضراوتهم عليه، ثم سألوه تحدياً: أن يصف لهم بيت المقدس- لأنهم عرفوا أنه ما ذهب إلى بيت المقدس قط من قبل-، فجلَّاه الله تبارك وتعالى له وكشفه أمام عينه، فأخذ ينظر إليه حتى عاينه، وطفق يخبرهم عن أوصافه شيئاً فشيئاً، ولا يستطيعون أن يردوا بكلمةٍ

---

(١) رواه البزار (٩٥١٨)، وقال الإمام الهيثمي في«مجمع الزوائد» (٢٣٥) (١/ ٧٢): «رواه البزار، ورجاله موثقون، إلا أن الربيع بن أنس قال: عن أبي العالية أو غيره. فتابعيه مجهول».

(٢) رواه أبو داود(٤٨٧٨) و(٤٨٧٩) عن أنس بن مالك ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لما عُرِجَ بي مررتُ بقوم لهم أظْفَار من نُحاس يَخْمِشُون بها وجوهَهم وصُدورَهم، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس، ويقعون في أعراضهم**»، وصححه الشيخ عبد القادر الأرنؤوط في تحقيقه لـ«جامع الأصول» (٦٢١٥) (٨/ ٤٤٨).

واحدة، ثم أخبرهم عن قافلة لهم عائدة من الشام إلى مكة، أخبرهم عن مكانها وعن بعض ما جرى مع أفرادها في الطريق، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير التي تتقدمها، وكان الأمر كما قال وكما وصف بكل دقة ﷺ، لكن معظم الكافرين لم يزدهم ذلك إلا نفوراً وإعراضاً وكفراً، ولما قيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: يا أبا بكر هذا صاحبك يزعم أنه ذهب الليلة إلى المسجد الأقصى وعاد إلينا في ليلة واحدة، ونحن نذهب إليها في شهر ونرجع في شهر، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فو الله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه، فسماه النبي ﷺ بأبي بكر الصديق رضي الله عنه[1].

هذه هي قصة الإسراء والمعراج، وقد كان فيها من التثبيت للنبي ﷺ والتطمين له الشيء الكثير، وفيها مكافئة لرسول الله ﷺ على صبره وثباته رغم كل ما واجهته من محن وابتلاءات.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٩)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٩٧).

دعوته ﷺ بين القبائل

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، فبعد أن تحدثنا عن الإسراء والمعراج، والتي جاءت بعد الأيام العصيبة التي مرت على الفئة المؤمنة وعلى رسول الله ﷺ في مكة، وبعد أن خرج عليه الصلاة والسلام إلى الطائف وعاد منها بعد أن آذوه ذلك الإيذاء، فأكرمه الله تبارك وتعالى وهيأ له الإسراء والمعراج، وفرض عليه الصلوات الخمس، صلوات ربي وسلامه عليه.

لقد عاد رسول الله ﷺ إلى مكة وهمُّ الدعوة إلى الله تبارك وتعالى في قلبه، وهو يسعى بكل جهده لإيصال هذه الرسالة إلى الناس كافة، وكان قد اعتاد عليه الصلاة والسلام أن يستغل المواسم- وخاصةً موسم الحج - فيلتقي بالوفود، ويلتقي بالقبائل، يدعوهم إلى الإسلام، فلما يئس من مشركي مكة، ووجد أن الفئة المؤمنة الضعيفة في مكة لا حول لها ولا قوة، ولم تستطع أن تعينه على تبليغ دعوته، عند ذلك كثَّف جهوده عليه الصلاة والسلام في هذه المواسم، في موسم الحج، وقبله في سوق عكاظ، وسوق ذي المجاز، والمجنة، وغيرها من الأسواق، فكان النبي ﷺ يغشاها ويدعو فيها إلى الله تبارك وتعالى، وكان ذلك في العام العاشر وفي العام الحادي عشر.

ويحكي لنا ذلك ربيعة بن عِبَادٍ الدؤلي ﷺ، فيقول: رأيت رسول الله ﷺ بذي المَجَاز يتبع الناس في منازلهم، يدعوهم إلى الله عز وجل ووراءَه رجلٌ وهو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم عن دينكم ودين آبائكم، قلت: من هذا؟، قالوا: عمُّه أبو لهب[1].

وفي رواية عنه ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ بَصَرَ عيني بسوق ذي المجاز- وهي بعرفة، قريبة من مِنى- يقول: «**يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**» ويدخل في فجاجها، والناس متقصفون عليه – يعني: يزدحمون عليه –، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت، يقول: «**أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**» إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقول: إنه صابئ، كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يُكَذِّبه؟ قالوا: عمه أبو لهب، قلت: إنك كنت يومئذ صغيراً، قال: لا والله إني يومئذ لأعقل[2].

وتأمل قوله ﷺ: «**يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**»، هكذا كانت خطبته عليه الصلاة والسلام، ما كان يدعو إلى عصبية ولا إلى جاهلية

---

(١) رواه البيهقي في«السنن الكبرى» (١٧٧٢٧) (٩/ ١٣)، وصححه الألباني في«صحيح السيرة النبوية» (ص ١٤٣).

(٢) رواه أحمد (١٦٠٢٣) (٢٥/ ٤٠٤، ٤٠٥) وقال محققو المسند: «صحيح لغيره».

ولا إلى ضلالة ولا إلى ظلم ولا إلى فساد، وإنما: (**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**).

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف، إلا تعرَّض له فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده[1].

وبعد دعوته ﷺ لهم في المواسم جهاراً نهاراً أمام الجميع، كان يذهب إلى زعماء القبائل في منازلهم في الليل، حتى لا يعلم به أحد، ولا يُكَذِّبه عمه ويشغله ويشوش عليه وعلى المدعوين، يذهب إليهم في سكون الليل فيستطيع أن يبلغ ويشرح ويقنع عليه الصلاة والسلام، وهو بهذا يقطع الطريق على هؤلاء الذين يعترضون عليه، فيتمكن من شرح هذه الدعوة وتبليغها، وكان يذهب معه أعوانه من أصحابه الكرام، أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وذلك حتى يرى زعماء القبائل أنه ليس وحده، وأن له من يؤمن به ومن يعاونه، وكان أبو بكر علياً بالأنساب والأحساب، فيدله على القبائل ورؤسائها، ويعرف قوتهم ومقدرتهم،

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٥).

وبذلك يتأكد عليه الصلاة والسلام من قدرتهم على حمايته حتى يبلغ رسالة الله تبارك وتعالى، وكل ذلك مما يدل على تخطيطه عليه الصلاة والسلام في دعوته، ويدل على حكمته ودقته وترتيبه للأمور، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يسير من غير ترتيب ولا تنظيم.

وممن دعاهم النبي ﷺ للإسلام: بنو كلب، فقد ذكر ابن إسحاق: أنه أتى كَلْباً في منازلهم، إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: يا بني عبد الله، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم[1].

وممن دعاهم الرسول ﷺ: بنو حنيفة، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردّاً منهم – كما ذكر ذلك ابن إسحاق –[2].

كما دعا الرسول ﷺ: بني عامر، فقال له رجل منهم- يقال له: بيحرة بن فراس-: والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب - نظر إلى الدعوة نظرة مادية، وفكَّر فيما يجنيه في الدنيا من نصرته للنبي ﷺ -، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء**»، قال:

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٤).

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٤).

فقال له: أفتهدف[1] نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه[2].

كما دعا الرسول ﷺ: بني شيبان بن ثعلبة، وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وعددهم يزيد على الألف، ولن تغلب ألف من قلة.

وسأل مفروق النبي ﷺ قائلاً: إلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال له النبي ﷺ: «**أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وأن تؤوني وتنصروني حتى أؤدّي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، وكذَّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد**». قال له: وإلام ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ إلى قوله: ﴿**ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[3].

وبعد أن سمع بنو شيبان من النبي ﷺ أعجبهم كلامه، وتأثروا به، وكاد الإسلام أن يدخل إلى قلوبهم حتى قال قائلهم: وإني أرى هذا الأمر الذين

---

(١) أي: تصير هدفاً يرمى.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٤، ٤٢٥).

(٣) الأنعام: ١٥١- ١٥٣.

تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره ملوك فارس- وكانوا على حدود ملوك فارس، وكان بينهم وبين ملوك فارس مواثيق وعهود- فقالوا له: إن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا - يعني ننصرك في مكان، واعذرنا في مكان آخر- فقال ﷺ: «**ما أسأتم الردَّ إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه**» ثم قال لهم ﷺ: «**أرأيتم إن أظهر الله تبارك وتعالى الإسلام أتدخلون فيه**» قالوا: نعم[1].

وفعلاً كانوا ممن أسلموا، بل كانوا ممن قادوا جيوش المسلمين لفتح بلاد فارس، وقائدهم ذلك اليوم هو المثنى بن حارثة ﷺ، الذي كان له فتح فارس بعد أن كان قبل الإسلام خائفاً منهم، وإذا به يقود جيوش المسلمين لفتح تلك البلاد.

ولم ييأس النبي ﷺ، واستمر يغشى القبائل والبطون في المواسم، والمجامع، والمنازل، ويكلم أشراف كل قوم، لا يسألهم مع ذلك شيئاً إلا أن يؤوه ويمنعوه، فلم يقبل أحد منهم، وما يأتي أحداً من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا، وقد أفسد قومه، ولفظوه؟![2].

---

(١) انظر: «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٢٨٢) ، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ١٦٦-١٧٠) ، وقوله ﷺ : «**ما أسأتم الردَّ إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه**» ، ضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٦٤٥٧) .

(٢) انظر: «السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة» (١/ ٤٣١).

ولما أراد الله سبحانه إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز وعده له، خرج رسول الله ﷺ في موسم الحج، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة ساق الله نفراً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فكانوا طلائع هذا النور الذي أبى الله إلا أن يكون من المدينة، فقال لهم: «**من أنتم؟**» قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: «**أمِنْ موالي اليهود؟**» قالوا: نعم. قال: «**أفلا تجلسون إليَّ أُكَلِّمكم؟**» قالوا: بلى، فجلسوا إليه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان من أسباب مسارعتهم إلى قبول دعوة الإسلام أنَّ يهود كانوا يساكنونهم في المدينة، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك، وأصحاب أوثان، وكانت تقع بين اليهود وبين الأوس والخزرج وقائع وحروب، وكانت الغلبة تكون للعرب، فكان إذا وقع شيء منها قالوا لهم: «إن نبياً مبعوثاً الآن قد قرب زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم» فلما كلَّم رسولُ الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله تهامسوا وقال بعضهم لبعض: تعلمون والله أنه النبيّ الذي توعَّدكم به يهود، فلا يسبقنّكم إليه. فأسرعوا إلى إجابته، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم، وندعوهم إلى الإسلام ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك،

ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعد أن آمنوا وأسلموا، وكانوا ستة نفر فيما ذكر ابن إسحاق- وهم: أسعد بن زرارة من بني النجار، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك بن العجلان الزرقي، وقطبة بن عامر من بني سلمة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رياب - وذكر موسى ابن عقبة في مغازيه أنهم كانوا ثمانية -.

وهؤلاء الستة شبابٌ صغارٌ، قلوبهم حيَّة، فآمنوا وأصبح الإيمان يتَّقد في قلوبهم، وهكذا قام الإسلام على الشباب منذ البداية، على صدقهم وإيمانهم وعزيمتهم وهكذا كل الأديان ما قامت إلا على الشباب، فحري بنا أن نحتفي بالشباب.

ولما قدم أولئك النفر إلى قومهم بالمدينة ذكروا لهم أمر رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، ولم تبق دارٌ من دور الأنصار حتى كان فيها ذكر لرسول الله والإسلام.

حتى إذا كان العام المقبل قدم على النبي ﷺ اثنا عشر رجلاً، فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، منهم خمسة من الستة الذين أسلموا أولاً، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر السلمي، وعقبة بن عامر ابن نابي، والسبعة الباقون هم: معاذ بن الحارث بن رفاعة، وذكوان بن عبد قيس البدري الزرقي، وعبادة بن الصامت بن قيس، وأبو عبد الرحمن يزيد

ابن ثعلبة، والعباس بن عبادة بن العجلان- وهؤلاء العشرة من الخزرج- وأبو الهيثم مالك بن التيّهان- من بني عبد الأشهل-، وعويم بن ساعدة- وهما أوسيان-؛ رضي الله عنهم جميعاً، فلما عادوا إلى المدينة أظهروا الإسلام ودعوا إليه[1].

(ولما ماتت خديجة بنت خويلد جاءت خولة بنت حكيم إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: يا رسول الله ألا تَزَوَّج؟ قال: ومَنْ؟ قالت: إن شئت بِكْراً وإن شئتَ ثيباً، فقال: ومَن البكر ومَن الثيب؟ فقالت: أمَّا البكر: فابنة أحب خلق الله إليك: عائشة، وأما الثيب: فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك)[2].

وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا من الله تبارك وتعالى يبشره فيها بزواجه من عائشة رضي الله عنها وأرضاها، فتزوج النبي ﷺ عائشة الصديقة بنت الصديق وهي بنت سبع سنين [3]، ودخل بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين رضي الله عنها وأرضاها، وتزوَّج سودة بنت زمعه وكانت رضي الله عنها وأرضاها تحوطه وتعينه، وهي أول من تزوجها

---

(١) انظر: «السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة» (١/ ٤٣٤ - ٤٣٦).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٠٤) (٢/ ١٨١) وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

(٣) ورد هذا في نفس الحديث السابق الذي رواه الحاكم وصححه.

بعد وفاة خديجة رضي الله عنها وأرضاها ولما سكن في المدينة كانت معه سودة وعائشة رضي الله عنهما وأرضاهما أمهات المؤمنين.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



بيعة العقبة الأولى

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، فبعد أن وقفنا مع الفئة القليلة التي مَرَّ عليها النبيُّ ﷺ ليلاً في منى من أهل يثرب، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا،وبالرغم من قلة عددهم إلا أن قلوبهم الصافية، وقلب رسول الله ﷺ الصادق في دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى؛ جعل الأمر ينطلق انطلاقةً مباركة، وينتشر انتشاراً عظيماً، فعاد هؤلاء الستة إلى المدينة وأخذوا يدعون إلى الإسلام وإلى القرآن في بيوت يثرب، فلم يبق بيتٌ في المدينة إلا ويتكلم عن القرآن وعن محمد ﷺ وعن الإسلام، والأرض خصبة ومهيأة لذلك، وهكذا دائماً إذا أغلق باب في وجهك فإن أبواب الله تبارك وتعالى مفتوحة، فإذا أغلق في وجه النبي ﷺ باب الدعوة من مشركي مكة، حيث لم يمكنوه من أن ينشر دعوة الإسلام على الوجه الأكمل، سخَّر الله تبارك وتعالى أرضاً أخرى خصبة انتشر فيها هذا الدين، فعاد هؤلاء في السنة التي تليها – وهي السنة الثانية عشرة من البعثة النبوة – عادوا في الحج ومعهم مثلهم[1] – وقد تقدم بيان ذلك تفصيلاً في الخطبة الماضية–، وهذا أيضاً دليلٌ على أن المسلم داعية، لا يعيش لنفسه فحسب، بل يدعو إلى الله تعالى، وهذا ما

(١) انظر: «السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة» (١/ ٤٣٤ - ٤٣٦).

فعله أولئك النفر الستة عندما عادوا إلى يثرب – بعد إسلامهم مباشرة – ودعوا غيرهم إلى الإسلام، فحصل لهم بإذن الله تعالى ثواب عظيم بسبب من أسلم على أيديهم، ومن أسلم بعد ذلك من أهل المدينة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، فعليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»(١).

ولذلك ينبغي على المسلم دائماً أن يجتهد في أن يكون داعيةً إلى الله تبارك وتعالى بالتي هي أحسن، وبالكلمة الطيبة، وبقدر ما عنده من العلم، وهذا هو العمل الصالح المثمر الذي ينتقل منك إلى غيرك، وهو أعظم أجراً من العمل القاصر عليك من نوافل الصيام والصلاة وتلاوة القرآن؛ لأن النفع المتعدي أعظم أجراً من النفع القاصر.

في موسم السنة الثانية عشرة من النبوة جاء خمسة من الستة الذين كانوا في العام الذي قبله – وكان قد تخلَّف منهم جابر بن عبد الله ﷺ –، وحضر معهم سبعة آخرون وهم: معاذ بن الحارث، وذكوان بن عبد القيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وأبو الهيثم بن التيّهان، وعويل

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٦)، وأحمد في «المسند» (٩١٦٠)، وقال محققو «المسند» (١٥/ ٨٣): «إسناده صحيح».

ابن ساعدة ، وهذا يدل على نجاح دعوة الإسلام في الخروج عن القبيلة، فالذين أسلموا في السنة الحادية عشرة كانوا كلهم من الخزرج، ولم يعودوا ويدعوا قومهم من الخزرج فقط، وكان بينهم وبين الأوس عداوات وحروب طويلة، ولكن جاء الإسلام وذوَّب هذه العداوات، فدعوا أعداءهم إلى دين الله تبارك وتعالى، فجاءوا معهم في العام الذي بعده، وهذا بداية النجاح في التوفيق بين هؤلاء المختلفين، وفي جمع كلمتهم وفي وحدة صفهم، إذاً هؤلاء الاثنا عشر صحابياً هم من بايع النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى؛ فعن عبادة بن الصامت ﷺ – وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة –: أن رسول الله ﷺ قال – وحوله جماعة من أصحابه–: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه**» فبايعناه على ذلك[1].

فهذه بيعة على ترك المحرمات، وعلى الطاعة لله تبارك وتعالى ولرسوله في الأمور التي شرعت في ذلك الوقت، فلم يكن هناك حدودٌ ولا عقوبات،

---

(١) رواه البخاري (١٨)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٣٣).

وإنما التزموا هذا الالتزام اليسير بالشرائع الموجودة آنذاك، وهذا من التدرج في التشريع، فلم يأت الإسلام دفعة واحدة بتكاليفه، وإنما تدرَّج مع الناس لأنه دين الفطرة، ودين الرحمة، وهكذا ينبغي على الداعية إلى الله تبارك وتعالى، أن يتدرَّج مع التائب إلى الله ﷻ، ومع المسلم الجديد، يتدرَّج معه شيئاً فشيئاً حتى يدخل في دين الله تبارك وتعالى عن قناعة وعن محبة بإذن الله ﷻ.

وهذه البيعة تُسَمَّى بيعة النساء، لما جاء أنه ﷺ بايع النساء هذه البيعة، ولأنه ليس فيها جهاد ولا قتال.

وقد أرسل النبي ﷺ مع هؤلاء الاثني عشر سفيراً منه إلى المدينة، وهو مصعب بن عمير ﷺ، وهو شاب حافظ لكتاب الله ﷻ، إضافةً إلى حسن خلقه وأدبه ومعرفته لكيفية التعامل مع الناس، وهذه أخلاق الداعية، فينبغي أن يكون الداعية إلى الله ﷻ متصفاً بهذه الصفات حتى يستطيع أن يُبَلِّغ رسالة الله تبارك وتعالى، فلا يكون الداعية فظاً ولا غليظاً ولا سيء الخلق ولا متكبراً متعالياً على الناس، فإنه لو كان كذلك لن يقبل الناس منه دعوته وسينفرون منه.

فاختيار النبي ﷺ لمصعب بن عمير ﷺ وفيه تلك الصفات، يدل على حسن الاختيار للشخص المناسب في المكان المناسب، وهكذا ينبغي

للمسئول إذا اختار أحداً في منصبٍ من المناصب، أن يختاره بعناية وبما يتناسب مع مؤهلاته التي تعينه على أداء ذلك الواجب.

والشاهد هنا: أن القوم لما انصرفوا راجعين إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس، وكان مصعب يعرف بالمقرئ، و كان يصلي بهم[1].

وبدأ الإسلام ينتشر بقوة في أهل يثرب عندما دخل في الإسلام أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وهما سيدا قومهما رضي الله عنهما وأرضاهما، ونلاحظ أنه لم يبق في المدينة من رجالاتها الكبار وزعماء القبائل إلا القليل، فقد مات كبراؤهم في حرب بعاث، والتي استمرت أربعين سنة، فهذه الحرب الطويلة مات فيها الكثير منهم وهلكوا، وبقي قيادات ناشئة شابة، ولذلك لما جاء الإسلام لم يواجه أولئك العتاة بل واجه أشخاصاً صغاراً لا زالت نفوسهم غضَّة طريّة قابلة للإسلام.

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة ، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٣٤).

الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم رَكَزَ حربته وجلس إليهما، فكلَّمه مصعبُ بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا - فيما يُذكر عنهما -: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له

سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك[1]. قال: فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوّفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره - وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان- قال: فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله - عرفوا إسلامه قبل أن يتكلم من إشراق وجهه وتسهله، وهكذا الإسلام عندما يدخل إلى القلب يظهر في الوجه، يظهر في الجسد، يؤثر على البدن لأن ارتباط القلب بالوجه وبالجسد ارتباط وثيق - ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا:

---

(١) الإخفار: نقض الْعَهْد والغدر.

تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير. قال: فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[1].

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم، لا يفكر في نفسه فقط، وإنما يفكر في نفسه وفي أهله وفي جيرانه وفي أصدقائه وفي زملائه وفي أقاربه وفي كل الناس من حوله، يسعى لهدايتهم بالكلمة الطيبة، وبالأسلوب النبوي الكريم الذي علَّمنا إياه الحبيب المصطفى ﷺ.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١)انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٣٦، ٤٣٧).

بيعة العقبة الثانية

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، فلا زلنا نأخذ الدروس والعبر من سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، واليوم نتحدث بإذن الله تبارك وتعالى عن بيعة العقبة الثانية مع كوكبةٍ من أهل يثرب الذين أسلموا وآمنوا وجاءوا مبايعين لرسول الله ﷺ، وكان قد سبقهم كما ذكرنا الستة الأوائل الذين مر بهم النبي ﷺ وهم بالعقبة فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وجاء في العام الذي يليه اثنا عشر رجلاً، وجاء في العام الثالث ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان.

قال كعب بن مالك: خرجنا إلى الحجّ وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، ليلة النّفر الأول، إذا هدأت الرِّجل، أن يوافوه في الشّعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة حيث المسجد الحرام اليوم، وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً[1].

وانظر كيف واعدهم النبي ﷺ موعداً محدداً بكل دقة، في ليلة الثالث عشر من ذي الحجة، وأوصاهم عند خروجهم من موقعهم ألا يشعر بهم أحد من قومهم، بأن يكون خروجهم إذا هدأت الرِّجل وسَكَنَ الناس، بأن

---

(١) انظر: «سبل الهدى والرشاد» (٣/ ٢٠١).

يخرجوا فرداً فرداً، أو فردين فردين، فخروج أكثر من سبعين شخصاً من وسط خمسمائة من الأوس والخزرج - الذين جاءوا لموسم الحج ذلك العام - لم يكن أمراً هيّناً ولا سهلاً، وما كان أحد يعلم بهذا اللقاء، ولا حتى المسلمين في مكة، إلا العباس عمّ النبي ﷺ الذي جاء معه ليتأكَّد من مبايعة هؤلاء النفر وصدقهم، وكذلك أبو بكر الصديق- الذي ما كان ليغيب أبداً عن أي موقف وعن أي مناسبةٍ هامة-، وكذلك علي بن أبي طالب- والذي وقف على فم الشِّعب، ووقف أبو بكر رضي الله عنه في بداية الطريق يحرسون رسول الله ﷺ- فاجتمع هؤلاء النفر في هذا الوقت- وقت نوم الناس وسكونهم -، وفي ذلك اليوم - يوم النفرة -، وفي هذا حكمة بليغة: وهي انتهاء الحج، فلا تتمكن قريش في اليوم الثاني من أن تمنع قوافل المؤمنين من الانصراف للمدينة، وإنما مباشرةً يخرجون من مكة ويعودون إلى ديارهم.

فاجتمعوا وأخذوا ينتظرون رسول الله ﷺ وقلوبهم مشتاقة لرؤيته، وفجأة يدخل عليهم الحبيب محمد ﷺ ومعه العباس رضي الله عنه، فكان العباس أول المتكلمين، فبين لهم أن النبي ﷺ في منعة من قومه بني هاشم، يحرسونه ويحمونه في مكة، ولكنه يريد الهجرة إليهم في المدينة، فأراد أن يتأكَّد من نصرتهم وحمايتهم له، وقال لهم العباس: فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يُسمّون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها-: إنَّ محمداً منَّا حيث قد

علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك – يذكرهم بخطورة البيعة وعظم المسئولية، وأنها فيها معاداة للعرب الذين اجتمعوا آنذاك على محاربة النبي ﷺ –، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. فقالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنَا[1]، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة[2]، ورثناها كابراً عن كابر[3]، فاعترض القول – والبراء يكلم رسول الله ﷺ – أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا

(١) أزرنا: أي نساءنا، والمرأة قد يكنى عنها بالإزار.

(٢) الحلقة: أي السلاح.

(٣) يتفاخرون بشجاعتهم وبطولتهم وأنها ستكون نصرة للحق ونصرة لرسول الله ﷺ، وليس في ظلم الناس ولا إيذائهم ولا في البغي والعدوان على الآخرين، كما يفعل المتغطرسون والمتكبرون والمتجبرون .

قاطعوها- يعني اليهود-، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟- هكذا يتكلمون بكل حرية وبكل صراحة وصدق - فتبسَّم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم[1].

فبايعهم النبي ﷺ، وطلب منهم أن يخرجوا له اثني عشر نقيباً، لم يُعيّن النبي ﷺ من عنده عليهم نقباء، وإنما ترك الأمر ليكون شورى بينهم، فيختاروا هم من أنفسهم نقباءهم، ليكونوا على قومهم بما هم فيه، وهذا يدل على أهمية الشورى، فأخرجوا له منهم اثني عشر نقيباً؛ تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فأما نقباء الخزرج فهم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وهو والد جابر، وكان قد أسلم تلك الليلة، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، والمنذر بن عمرو ابن خنيس.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤١، ٤٤٢).

وأما نقباء الأوس فهم: أسيد بن حضير بن سماك، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر[1].

وأوردتْ بعض كتب السيرة أن العباس ﷺ لما نظر في وجوه من حضروا لمبايعة النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية، قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم هؤلاء أحداث[2].

وهذا يدل على أنهم كانوا شباباً صغاراً، ويدل على أهمية الشباب في كل زمان ومكان، فإذا أُهْمِلُوا ضاعت الأمة، وليس لها قيمة إلا بشبابها، فهم قُوَّتها وهم عُدَّتها وهم أمانها.

هذه البيعة هي فتح الفتوح، وهي أُولى حلقات الجهاد في سبيل الله، فهي بيعة على بذل الأرواح والأموال والأنفس في سبيل الله تعالى، إنها بيعة تختلف عن بيعة العقبة الأولى التي بايعوا فيها على أن يعبدوا الله تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا، بينما هنا في هذه البيعة: اختلف الأمر، حيث يوجد سمع وطاعة، وكانت العادة عند العرب هي السمع والطاعة للقبيلة وللعشائر والأحساب والأنساب، وهنا موقف جديد ومنطق مختلف، فالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ، وهذا حدث جديد على الجزيرة وعلى العرب وعلى العالم كله، أن يكون الولاء والبراء لله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٣، ٤٤٤).

(٢) انظر: «مختصر سيرة الرسول ﷺ»، لمحمد بن عبد الوهاب (ص ١٢٣).

وبعد أن انتهت البيعة، طلب منهم الرسول ﷺ الانصراف إلى رحالهم، وذلك عندما سمعوا صوت الشيطان يصرخ منذراً قريشاً بهذا الاجتماع الخطير، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا. وتأمل؛ ثلة صغيرة يريدون أن يهاجموا أمة بأكملها؛ لأن الإيمان رسخ في قلوبهم، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**إنا لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلي رحالكم**» فرجعوا إلي رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ﷺ، فحلف المشركون من الأوس والخزرج بأنهم لم يفعلوا، والمسلمون منهم ينظر بعضهم إلى بعض[1].

وهكذا مرت بيعة العقبة الثانية بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة وهم ينتظرون مقدم النبي ﷺ وأصحابه الأجلاء بفارغ الصبر.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٤٨)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٤٩)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٦/ ٤٤، ٤٥) وقال عقبه: «رواه أحمد، والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع».

الاستعداد للهجرة النبوية

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، فبعد أن وقف بنا الحديث عند بيعة العقبة الثانية التي بايع فيها الثلة المؤمنة من الأنصار الحبيب المصطفى ﷺ، وأعطوه العهود والمواثيق على رعايته ورعاية دينه ورعاية أصحابه، عند ذلك أكرم الله نبيه ﷺ برؤيا حسنة، و«**رؤيا الأنبياء وحيٌ**»[1]، فرأى النبي ﷺ دار الهجرة أرضاً ذات نخلٍ بين لابتين[2]، فقام الحبيب ﷺ يبشر أصحابه سراً بهذه الرؤيا، فقد جاء الأمر من الله تبارك وتعالى بهذه الهجرة للفئة المؤمنة المستضعفة التي عاشت ثلاث عشرة سنة في مكة في قهر وظلم وقتل وتشريد، فبعد هذا الضيق الشديد جاءت هذه الرؤيا فرجاً من الله تبارك وتعالى، فبشر النبي ﷺ بها أصحابه، فبدأ الأمل يدب في نفوسهم؛ أنهم سيحيون حياةً جديدةً، ويبدءون صفحةً جديدة، ويكونون دولةً جديدة، فإذا بهم رضوان الله تعالى عليهم وأرضاهم ينطلقون في هذه الهجرة من الضغط والظلم والقهر إلى السعة والعدل، فهاجر من هاجر إلى

---

(١) انظر : «صحيح البخاري» (١٣٨) (١/ ٣٩) .

(٢) رواه البخاري (٣/ ٩٨) ولفظه عن النبي ﷺ قال : «**قد أريت دار هجرتكم، رأيت سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ**»، و«سبخة» هي الأرض التي لا تكاد تنبت لما يعلوها من الملوحة. و«لابتين» هما الحرتان، مثنى لابة، وهي الأرض ذات الحجارة السوداء .

المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجراً، فقال له رسول الله ﷺ : «**على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي**»، قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «**نعم**»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر[1]، عرف الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ يطلب منه أن يتأخر ليكون رفيقه في هذه الرحلة المباركة العظيمة، فانتظر أبو بكر رضي الله عنه وأخذ يعلف راحلتين كانتا عنده ويعدهما لتلك الهجرة المباركة.

أيها الأحبة في الله، لم تأتِ الهجرة صدفةً ولا عفويةً هكذا، بل جاءت بتوجيهات ربانية، وإشارات جاءت في القرآن قبل هذه الرؤيا، فقد نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ** ﴾[2]، كما نزل قوله تعالى: ﴿ **قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ** ﴾[3]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ**

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٩٨) و(السمر) نوع من الشجر واحده سمرة .

(٢) العنكبوت: ٥٦ .

(٣) الزمر: ١٠.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وفي سورة الكهف، وردت قصة أصحاب الكهف، أولئك الفتية الذين خرجوا من بلادهم وديارهم فراراً بدينهم.

لقد كانت هذه الآيات تهيئة للصحابة الكرام على الهجرة وتوطين لنفوسهم، وهم الذين ما تعوَّدوا على ترك أموالهم ودورهم وأهليهم .

وفي قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[2]، قد يستغرب المهاجر ويتساءل ما هي حسنة الدنيا؟، وقد ترك بيته، وترك ماله، وترك أهله!!، ولكن الله سبحانه عوضهم عن ذلك، فما هي إلا سنوات يسيرة بعد وصولهم إلى المدينة مهاجرين إلى الله ورسوله، حتى فتح الله عليهم الدنيا، وأصبحوا أمراء وقادة وموجهين ومرشدين في مشارق الأرض ومغاربها، بعدما عانوا في مكة وذاقوا شتى ألوان الأذى والاضطهاد، فعوضهم الله حسنة في الدنيا، وثوابه في الآخرة لهم أعظم وأكبر؛ فمهما أصاب المؤمن من ظلم ومن إيذاء ومن بطش فإن الله تبارك وتعالى يعوضه في الدنيا والآخرة.

---

(١) النحل: ٤١.

(٢) النحل: ٤١ .

هذه هجرة الصحابة ﷺ، وهذه هجرة المؤمنين، ليست كهجرة الصهاينة المجرمين المعتدين الذين جاءوا إلى أرض فلسطين وظلموا أهلها، واغتصبوا أرضها، ولكن عين الله سبحانه وتعالى لا تنام، وهؤلاء الظلمة لهم يومٌ عند الله تبارك وتعالى، يتكلم فيه الحجر والشجر، ويقول: «**يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي وراءي تعالى فاقتله**»[1].

وهناك نماذج لهجرة بعض الصحابة بعد أن تعرضوا لألوان من الأذى على يدي مشركي مكة، ومن هؤلاء الصحابة: أبو سلمة وزوجه أم سلمة وطفله الصغير سلمة، أسرة صغيرة بريئة هاجرت إلى الحبشة، ثم عادت إلى مكة ظناً منها أن الاضطهاد للمؤمنين قد انتهى، فإذا بالظلم والطغيان والبطش كما هو، فقررت الهجرة مرة أخرى إلى المدينة، فقد كان أبو سلمة ﷺ أول المهاجرين من أهل مكة إلى المدينة، ونترك أم سلمه هند بنت أبي أمية - والتي أصبحت بعد ذلك أم المؤمنين، وتزوجها النبي ﷺ لما استشهد زوجها - تقول أمُّ سلمة: لما أجمع أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال

---

(١) جاء ذلك في صحيح مسلم (٢٩٢٢) عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود**».

بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ - أخذتهم الحمية الجاهلية والعنصرية المقيتة - قالتْ: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة - أصبحت المسألة حمية وعصبية بين العشيرتين وبين القبلتين -، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده - منظر غاية في الحزن والألم والهم -، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة - فقد أيقن أنهم يريدون بهذا الأمر صدَّه عن الهجرة، وكان قد عزم على الهجرة في سبيل الله، فأكمل مسيرته للمدينة، وتحمل فراق زوجه وابنه، واستمر في النية التي نواها في سبيل الله تبارك وتعالى -، قالت: فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنتُ أخرجُ كلَّ غداةٍ فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أُمسي سنةً أو قريباً منها - بقيتْ في مكة سنةً كاملة تخرج كل يوم إلى الأبطح تبكي من الصباح إلى المساء، ثم تعود وتخرج في اليوم الثاني، وهي تنظر إلى جهة المدينة، جهة الإيمان والإسلام، الجهة التي فيها زوجها وصحابة رسول الله ﷺ، واستمرت على تلك الحال سنة كاملة، سنة حسرة وهمّ وبكاء وضيق -، تقول رضي الله عنها: حتى مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي

فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرِجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! - تحرَّك في قلبه شيءٌ من الرحمة لها، ورقَّ لها أبناء عمومتها وعشيرتها عندما كلمهم في شأنها - قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلتُ بعيري ثم أخذتُ ابني فوضعته في حجري، ثم خرجتُ أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: أتبلَّغ بمن لقيتُ حتى أقدم علي زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم[1] لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار- وهم الذين كان بيدهم مفاتيح الكعبة - فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قالت: لا والله، إلا الله وبني هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي - دفعته النخوة والشهامة ليقف بجوارها في سفرها للمدينة ولا يتركها وحدها، وقد كان في العرب في الجاهلية قبل الإسلام هذه النخوة والشهامة والرجولة والبطولة والفداء، وذلك من أسباب اختيار نزول دين الإسلام على العرب، وليتنا نعيش تلك الأخلاق الفاضلة التي كانت موجودة في الجاهلية، وجاء الإسلام فأقرها وزادها وثبتها كدعائم راسخة تقوم عليها شخصية المسلم، إلا أننا وللأسف الشديد

(١) التنعيم: موضع بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة.

نرى كثيراً من المسلمين لا يمتثل هذه الأخلاق، بل نجده لا يرعى حرمةً لأهل جاره، ولا لأهل صديقه، ولا لأهل أقاربه وإخوانه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - المهم تقول أم سلمة رضي الله عنها وهي تتحدث عن صحبته لها إلى المدينة : فو الله ما صحبتُ رجلاً من العرب قطُّ، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدَّمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية- وكان أبو سلمة بها نازلاً- فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة. وكانت أم سلمة تقول بعد ذلك : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيتُ صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة[1] .

هذه الأسرة المباركة مجرد نموذج لما فعله الصحابة الكرام لأجل دينهم، فعلوا كل ذلك في الله، ولله، وفي حب الله، فماذا فعلنا نحن؟ ماذا فعلنا لله وفي حب الله؟ ماذا فعلنا لهذا الدين؟ كل واحد منا مسئول عن هذا الدين، فماذا

(١) انظر : «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٦٩، ٤٧٠) .

فعلنا لنصرة ديننا، وهل تدور أعمالنا وهمومنا حول نصرة ديننا أم أنها تدور حول الأموال والأراضي والتجارة فقط!! .

ومِن الصحابة مَن حُبِسَ وقُيِّد بالقيود، ومنهم عيّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص، فقد سجنتهما قريش ومنعتهما من الهجرة، وكان سجنهما في بيت لا سقف له، أي أنهما يتعرضان للشمس والغبار والهواء في صحراء مكة المهلكة، وكان النبي ﷺ يدعو وهو في المدينة بنجاتهما، ويقنت على كفار مكة[1]، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة، ويكبر ويرفع رأسه: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**»، ثم يقول وهو قائم: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضر واجعلها عليهم كسني يوسف، اللهم العن لحيان، ورعلا، وذكوان، وعصية عصت الله ورسوله**»، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» (٢/ ١٢٧) .

(٢) آل عمران: ١٢٨، والحديث رواه مسلم (٦٧٥)، و(وطأتك) أي: بأسك، (كسني يوسف) أي: اجعلها سنين ذوات قحط وغلاء .

وهناك أسلوب آخر من أساليب مشركي مكة في تعويق الصحابة عن الهجرة، وهو أسلوب سلب المال، فهذا صهيب بن سنان النمري وهو من الروم، سُبي وهو صغير، وتقلب في الرق حتى ابتاعه عبد الله بن جدعان، وكان من خيار رجال العرب، ومن أكثرهم مروءةً ورجولةً وبطولةً، فأعتقه ودخل في الإسلام هو وعمار بن ياسر في يوم واحد، فلما أراد صهيب الرومي ﷺ الهجرة إلى المدينة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**ربح صهيب، ربح صهيب**»[1].

دلَّهم على ماله وأعطاهم إياه، كل ثروته التي جمعها قدمها رخيصةً في سبيل اللحاق بالرسول ﷺ، والهجرة إلى الله ورسوله، وقد ربح بيعه وربحت صفقته ﷺ .

هذا ما فعله عددٌ من أصحاب النبي ﷺ في هجرتهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، على ما قدموا وبذلوا من جهد وتعب ونصب في ذات الله تعالى، وقد أكرمهم الله تبارك

---

(١) انظر : «صحيح ابن حبان» (٧٠٨٢)، و«لسيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٧٧) .

وتعالى وعوَّضهم، حتى جعلهم قادة الدنيا، والفاتحين لمشارق الأرض ومغاربها، هذا فضلاً عن رضوانه عليهم، ومغفرته لهم، ونعيم الآخرة لهم في الجنان بإذن الله تعالى .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



الهجرة النبوية حتى وصول الغار

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، لا زلنا في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، نقتطف من دروسها وعبرها ما نستضيء به في حياتنا، ونسير على هديه ﷺ، ولا زلنا في بدايات الهجرة النبوية، فبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية في الحج، مكث النبي ﷺ بقيّة ذي الحجة والمحرم وصفر، بعد ذلك اجتمع مشركو مكة على مؤامرةٍ دنيئةٍ تدل على ضعفهم، حتى أخذوا يتآمرون على النبي ﷺ عندما رأوا خروج أصحابه رضي الله عنهم للهجرة من مكة إلى المدينة، وأدركوا الخطر المتمثل في قيام دولة للمسلمين بالمدينة، وقد سطر القرآن الكريم هذه المؤامرة، في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1].

وهذا التآمر من أعداء الإسلام واقع في كل زمان ومكان، يمكرون ويخططون وينفقون الأموال ويبذلون الجهد في هذه المؤامرات، ومن هذا المكر ما نراه في فلسطين طوال سنوات عديدة، من قتل مستمر، واعتقالات لا تتوقف، وهدم للبيوت، ونهب للأموال، ومع هذا لا زال أطفال الحجارة الأبطال، ولا زال رجال المقاومة الأحرار، لا يزالون شوكة في حلوق اليهود.

---

(١) الأنفال: ٣٠.

قال ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية[1]، قال: «تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح، فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك، فبات عليٌ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة - وكان لعلي من العمر عشرون سنة، في عمر الزهور، وفي بداية الشباب، بات علي ﷺ على فراش النبي ﷺ وهو يعلم أن هذا الفراش في هذه الليلة مستهدف بالقتل، ليس نوماً هادئاً، وليس نوماً آمناً، بل نوم تحفُّه المخاطر، ولكنه نام فداءً لرسول الله ﷺ - وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً، يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً، ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا، لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال»[2].

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٢٥١) (٥/ ٣٠١)، وقال الحافظ ابن كثير عقب إيراده لرواية الإمام أحمد لهذا الخبر: «وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله لرسوله ﷺ». انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٢٣٩).

وتأمل قول بعضهم: «بل اقتلوه» وقائل هذا القول هو أبو جهل- لعنه الله ﷻ -، وهكذا هو فكر الطغاة والمجرمين والمتكبرين، أول ما يتبادر لأذهانهم مع معارضيهم هو القتل، ليس لهم قدرة على الحوار، وليس لهم قدرة على التفاهم والأخذ والرد، لأنهم سيفشلون بلا شك، فليس أمامهم إلا أن يقتلوا معارضيهم!! .

وتأمل كيف مكر الله بأولئك الكافرين، وكيف ردَّ سبحانه مكرهم عليهم، بنوم علي مكان النبي ﷺ، ثم ردَّ الله كيدهم بالعنكبوت الذي نسج خيوطه على فم الغار، فعندما تَتَبَّعوا أثرَ النبيِّ ﷺ وصاحبه، ووصلوا خلفهما إلى الغار الذي انقطعت آثار أقدامهما عنده، ورأوا نسيج العنكبوت على باب الغار، قالوا: لو دخلا هاهنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابه، وكان ذلك سبب انصرافهم، فمكث النبي ﷺ ثلاث ليال بالغار حتى خفَّ الطلب، ثم استأنف المسير هو وصاحبه – أبو بكر الصديق رضي الله عنه – إلى المدينة.

فالعنكبوت ونسيجه الذي نسجه، جندٌ من جنود الله تبارك وتعالى التي ينصر بها سبحانه الحق وقتما يشاء ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1]، ولماذا يعطينا الله سبحانه وتعالى درساً ببيت العنكبوت الذي ورد

(١) الفتح: ٧.

فيه قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]؟، هذا ليؤكد لنا أنه سبحانه قادر على حفظ عبده ونبيه ﷺ ولو بأضعف جنوده وأوهنها – وهو بيت العنكبوت –، فالذي حفظ النبي ﷺ، ليس قوته، ولا عشيرته، ولا أسلحته، بل ربه وخالقه سبحانه لا غير.

وقد وقف النبي ﷺ عند خروجه من مكة، وقال: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب الأرض إلى الله، ولولا أني أُخْرِجتُ منك ما خرجت**»[2]، كلمات تكتب بماء الذهب، كلمات تدل على الحب وعلى التعلق الشديد من رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، ولكنه خرج منها ليعود إليها فاتحاً ناشراً لدين الله تبارك وتعالى .

ويُروى أنه ﷺ عند خروجه من مكة إلى المدينة دعا بقوله : «**الحمد الله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً، اللهم أعني على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام، اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني، وعلى صالح خُلُقِي فقوِّمني، وإليك ربِّ فحببني، وإلى الناس فلا تكلني، ربُّ المستضعفين وأنتَ ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقتَ له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح**

---

(١) العنكبوت: ٤١ .

(٢) رواه أحمد (١٨٧١٨) (٣١/ ١٤) وقال محققو المسند: «حديث صحيح»، وانظر أيضاً : «الروض الأنف» (٤/ ١٣٣) .

عليه أمر الاولين والآخرين، أن تحلَّ عليَّ غضبك، أو تنزل بي سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك وجميع سخطك، لك العتبى عندي خير ما استطعت، لا حول ولا قوة إلا بك»[1].

وهكذا ينبغي للمسلم في كل مواقفه وأحواله - ولاسيما في الأوقات الصعبة - أن يلجأ إلى الله تبارك وتعالى بعد أن يأخذ بالأسباب، فيرفع يديه إلى الله تبارك وتعالى يسأله معونته وحفظه وتأييده .

وتروي لنا أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قصة خروجه عليه الصلاة والسلام مع أبيها للمدينة، وكان لها من العمر ثمان سنوات، وقد تزوجها النبي عليه الصلاة والسلام قبل ذلك بعد الإسراء، ولم يدخل عليها إلا بالمدينة، فتروي لنا هذا الخبر، تقول رضي الله عنها : فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة - وكان النبي ﷺ يأتي إلى بيت أبي بكر كلَّ يوم إما في الصباح وإما في المساء، وفي هذا اليوم بالذات جاء في وقت الزوال عند اشتداد الحرِّ، في وقت لا يأتي فيه عادةً - قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعاً[2]، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٢٣٤)، و«سبل الهدى والرشاد» (٣/ ٢٤٣)، وقد رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٢٣٤) وعنونه بقوله: «باب القول في السفر» .

(٢) (متقنعاً) مغطياً رأسه.

أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أخرج من عندك**» - فالأمر مهم وخطير ولا بد من الاحتياط-، فقال أبو بكر: إنما هم أَهْلُكَ - فعائشة زوجته وهي بنت الصديق محل الأمان، وأسماء كذلك، وكانت أسماء صغيرة أيضاً في الخامسة عشرة أو في السادسة عشرة من عمرها، فلا يوجد أحد يشك فيه - بأبي أنت يا رسول الله، قال: «**فإني قد أُذِنَ لي في الخروج**» - خبر يسير ولكنه خطير، فهو خروج القائد الرسول الكريم ﷺ، وما كان الصحابة يظنون أنه سيأذن له، وإنما ظنوا أنه سيبقى في مكة وهم في المدينة، كما كان الحال في الهجرة إلى الحبشة، - فقال أبو بكر: الصحابة -أي: أريد مصاحبتك - بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ : «**نعم**» قال أبو بكر: فخذ - بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ : «**بالثمن**»- وهذا من نزاهته وعفته صلوات ربي وسلامه عليه -، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب[1]، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور- وهو في جنوب مكة، وهذا من التخطيط والاحتياط، فالنبي ﷺ يعلم أن هجرته إلى

(١) (أحث) من الحث وهو الإسراع، و(الجهاز) ما يحتاج إليه في السفر، و(سفرة) الزاد الذي يصنع للمسافر، و(جراب) وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه.

المدينة وأنه سيتوجه إلى الشمال، ولكنه خرج إلى الجنوب إلى غار ثور جهة عوالي مكة ليُعمِّيَ على المشركين الذين سيبحثون عنه وعن أبي بكر ﷺ – فكَمَنَا – أي: مكثا مختفيين – فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب، ثقف لقن – أي ذكياً فطناً –، فيدلج من عندهما بسحر– يعني يخرج من عندهم في وقت السحر قبل الفجر –، فيصبح مع قريش بمكة كبائت – كأنه كان نائماً معهم –، فلا يسمع أمراً، يُكْتَادَانِ – يعني: يدبر بشأنهما ويمكر به لهما ويسبب لهما الشر والأذى – به إلا وعاه – حفظه واستوعبه –، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر مِنْحَةً من غنم، فَيُرِيحُهَا عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْلٍ، وهو لبنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حتى يَنْعِقَ بها عامر بن فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ[1]، – عنده أغنام يرعى بها فيغطي على آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر، وكان أيضاً شاباً صغيراً في السادسة عشر أو السابعة عشر من عمره ، يريحهما عليهما حتى تذهب ساعةً من العشاء – يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيلِ، وهو من بني عبد بن عدي، هَادِيَا خِرِّيتاً –والخريت الماهر

(١) (منحة) الناقة أو الشاة يعطى لبنها ثم جعلت كل عطية منحة، وكذلك تطلق على كل شاة. (فيريحها) من الرواح وهو السير في العشي. (رسل) اللبن الطري. (رضيفهما) هو اللبن الذي جعل فيه الرضفة وهي الحجارة المحماة لتذهب وخامته وثفله، وقيل: الرضيف: الناقة المحلوبة. (ينعق) يصبح بغنمه. (بغلس) هو ظلام آخر الليل .

بالهداية – وهو على دينِ كفار قريش، فَأَمِنَاهُ فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال – هذا يدل على الدقة وعلى النظام وعلى الترتيب، فقد أتاهما بعد ثلاث ليالٍ في المكان والوقت المحدد –، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل[1].

لم يكن النبي ﷺ يسير في هجرته هكذا من غير تنظيم ولا تخطيط ولا ترتيب، وإنما نظم وخطط ورتب واحتاط لكل شيء، وكيف لا وهو القائل ﷺ: «**اعقلها وتوكل**»[2]، نظم وخطط ونفذ واستعن بالله وتوكل عليه، إن فعلت ذلك فأنت أقرب إلى النجاح وأقرب إلى التوفيق، عندما تأخذ بالأسباب وتتوكل على الله سبحانه وتعالى .

وتأمل رعي عامر بن فهيرة مولى أبي بكر للأغنام عندهما، ليغطي على آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر، عندما يأتيهما بأخبار مكة، فعندما يمشي بالأغنام خلفه تختفي آثاره فلا يسهل تتبعه ومعرفة أين كان، إضافةً إلى أنه يعطيهما – النبي ﷺ وصاحبه – من ألبان هذه الأغنام فيتقويان بهما طيلة

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٥) .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٣١) عن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه قال: قال رجل للنبي ﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**» . وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط (٢/ ٥١٠): «حديث حسن» .

بقائهما في الغار، فهما في أمان من الله، وفي طعام وشراب ورزق من الله تبارك وتعالى .

ويؤخذ من استئجار النبي ﷺ لرجل من بني الديل - وهو عبد الله بن أبي أريقط اللَّيْثِيّ، والنبي ﷺ اختاره لخبرته وأمانته مع أنه مشرك وعل دين المشركين - : أنه يجوز الاستفادة من غير المسلم في مجال ما من المجالات، إذا كان خبيراً، وإذا كان مأموناً لا يحقد على المسلمين، ولا يؤذي المسلمين، ولا يتجسس على المسلمين وينقل أسرارهم إلى الكفار .

وقد حمل أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه ثروته كلها ليضعها تحت تصرف النبي ﷺ، فالأمر خطير، والنبي القائد ﷺ يهاجر ليقيم الدولة الإسلامية في المدينة، وهو في حاجة شديدة إلى المال، فلذلك أخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ماله كله لأجل ذلك؛ تقول أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما- : لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: كلا يا أبتِ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبتِ، ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا

كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. قالت : ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك[1].

ومن المواقف التي حصلت للنبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار : قدوم المشركين خلفهم ووصولهم إلى باب الغار، وأخذ قلب الصدِّيق ينبض خوفاً على رسول الله ﷺ، فقال وهو يهمس في أذن النبي ﷺ: «يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدمه لرآنا» وهذا من مكر الله تبارك وتعالى بالكفار، فالله تعالى صرفهم عن أن ينظر أحدهم إلى موضع قدمه، ومن ذهب إلى الغار ورآه يعلم يقيناً أنه لا يصلح للاختباء، فمعظمه مكشوف، لكن الله ﷻ يرينا قدرته، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فأعمى الله سبحانه وتعالى أبصارهم عن أن تنظر للأسفل فترى نبيه ﷺ وصاحبه بالغار .

وعندما قال أبو بكر : «لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدمه لرآنا» أجابه النبي ﷺ في ثبات ويقين وثقة في الله ﷻ: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[2]، ما أجمل هذه الكلمات التي تدل على الإيمان والثبات واليقين،

---

(١) رواه أحمد (٢٦٩٥٧) (٤٤/٥١٩، ٥٢٠) وقال محققو المسند: «إسناده حسن». وانظر أيضاً: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٨) .

(٢) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) ولفظه عند مسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، حدثه قال: «نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه»، فقال: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» .

فمهما كنت في محنة ولجأت إلى الله فالله تبارك وتعالى معك، يعينك ويثبتك، ويأتيك بالمخرج والفرج.

وقد سجل القرآن هذا الموقف وخلّده، فقال جل وعلا : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، فلو تخليتم جميعاً عن نصرته ﷺ، فالله ﷻ لن يتخلى عنه، والله تبارك وتعالى ناصره ومؤيده .

ومن المواقف المؤثرة في الهجرة[2]: أمر الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بتأدية الأمانات التي كانت عنده ﷺ لأصحابها من المشركين في مكة، وفي إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله، دليل على تناقضهم العجيب، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر، أو مجنون أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكانوا لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي

---

(١) التوبة: ٤٠ .

(٢) انظر: «السِّيرةُ النّبوية، عرضُ وقائع وتحليل أحدَاث» للصلابي (ص ٢٨٣) .

يخافون عليها إلا عنده، وهذا يدل على أن كفرهم به لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به، وخوفاً على زعامتهم، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١).

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



(١) الأنعام: ٣٣ .

الهجرة من الغار حتى الوصول للمدينة

أما بعد، فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، وقف بنا الحديث في مواقف وعبر السيرة العطرة، عند خروجه صلوات ربي وسلامه عليه من غار ثور، واليوم نستأنف الحديث في تلك الرحلة المباركة .

بعد أن ظل النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه بالغار ثلاثة أيام، خرج الركب المبارك مهاجراً إلى المدينة – النبي ﷺ، وأبو بكر، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، والدليل عبد الله بن أريقط الليثي- وكان الدليل مشركاً؛ وهذا فيه تخطيط وتورية وتعمية، فلم يكن يخطر على بال المشركين أن من يقود ركب النبي ﷺ مشركٌ!!، إضافةً إلى أنه كان متخصصاً خبيراً في الطرق، وهذا فيه جواز استعانة المسلم بغير المسلم فيما تدعوا إليه الحاجة .

سار الركب بعد أن هدأ الطلب عن النبي ﷺ، وأخذوا طريق الساحل مروراً بعسفان، وقد مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية – التي أسلمت بعد ذلك –، وكانت امرأةً برزةً جلدةً – أي أنها كانت كاشفةً عن وجهها، لكبر سنها –، تحتبي بفناء الخيمة، ثم تَسْقِي وتُطْعِم من يمرُّ بها، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها، فلم يُصِيبُوا عندها شيئاً من ذلك – كان وقت جفاف وشدة –، وكان القوم مُرْمِلِينَ مُسْنِتِينَ – يعني: بلغ بهم الجوع والعطش مبلغاً شديداً – فنظر رسول الله ﷺ إلى

شاةٍ في كَسْرِ الخيمةِ، فقال: «**ما هذه الشاة يا أم معبد؟**»، فقالت: شاةٌ خلَّفها الجهد والتعب عن الغنم، فقال رسول الله ﷺ : «**هل بها من لبن؟**»، قالت: هي أجهد من ذلك؟ قال ﷺ : «**أتأذنين لي أن أحلبها**» – سبحان الله، بعد أن أخبرته أنه ليس فيها لبن، يستأذنها في حلبها – قالت: نعم، إن رأيت بها حَلْباً فاحْلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسَحَ بيده ضَرْعَهَا وسمَّى الله ﷻ ودعا لها في شاتها، فَتَفَاجَّتْ عليه – أي: وسَّعت ما بين رجليها من شدة اللبن الذي اجتمع في ضرعها- ودرَّتْ، فدعا بإناءٍ فحلَبَ فيه حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رَوِيَتْ، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا، وشرب آخرهم – فانظر إلى هذا التواضع، وهو النبي الكريم، يحلب بنفسه، ويسقيهم بنفسه، ثم يكون آخرهم شراباً صلوات ربي وسلامه عليه –، ثم حَلَب فيه الثانية حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها وارتحلوا عنها، ثم ما لبث أن جاء زوجها أبو معبد، وهو يسوق أَعْنُزاً عِجَافاً يَتَسَاوَكْنَ هُزَالاً، فلما رأى أبو معبدٍ اللَّبْنَ أَعْجَبه، قال: من أينَ لك هذا يا أمّ معبد، والشاةُ عَازِبٌ حائِلٌ، ولا حلُوبَ في البيتِ؟ قالتْ: لا والله، إلا أنه مر بنا رجلٌ مُباركٌ من حاله كذا وكذا، قال: صِفيه لي يا أم معبد، فوصفته وصفاً دقيقاً، فقال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا أمره بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولئن وجدت إلى ذلك سبيلاً لفعلتُ[1].

---

(١) انظر: «مستدرك الحاكم»(٤٢٧٤) (٣/ ١٠) وقال الحاكم بعد أن رواه : «هذا حديث صحيح

وقد أسلم بعد ذلك ﷺ، وقدم على النبي ﷺ هو وأم معبد، وأحسن النبي ﷺ استقبالهما وفاءاً منه، وكان من أبنائها من شارك مع النبي في غزواته وجهاده .

ثم إن قريشاً رصدت مبلغاً كبيراً لمن يأتي بمحمد ﷺ أو أبي بكر الصديق حيَّاً أو ميتاً؛ فرصدت مائةً من الإبل، يقول سُرَاقَةُ بن مالك بن جُعْشُمٍ يقول: جاءتنا رُسُلُ كفار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبى بكر ديةَ كلِّ واحدٍ منهما لمن قتلَه أو أَسَرَه، فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مجالس قومي- بَنِي مُدْلَجٍ -، إذ أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنِفاً أَسْوِدَةً – أشخاصاً – بالساحل، أراها محمداً وأصحَابَه، قال سراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا هم، ولكنَّكَ رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقا بأعيننا - يريد أن يصرفهم عن اللحاق بهم، حتى يفوز بمفرده بهذه الغنيمة -، ثم لبثتُ في المجلِسِ ساعةً، ثم قمتُ فدخلتُ، فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي، وهي من وراء أَكَمَةٍ - رابية مرتفعة عن الأرض - فَتَحْبِسُهَا عَلَيَّ ، وأخذت رمحي فخرجتُ به من ظهر البيت – أي: من خلف البيت -، فَخَطَطْتُ بِزُجِّهِ[1]

الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وانظر أيضاً: «شرح السنة» للبغوي (١٣/ ٢٦٢، ٢٦٣)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٢٦٠، ٢٦١) .

(١) الزج: حَدِيدَة تـُجْعَل في طرف الرمْح، والمعنى: خفضت أعلاه وجررت زجه على الأرض فخططتها به من غير قصد .

الأرض، وخفضت عاليه – خرج من خلف البيت وأخفض رمحه حتى لا يراه أحد –، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها – أي : أسرعت بها السير – تُقَرِّبُ بى حتى دنوت منهم، فعثرت بى فرسي، فخررتُ عنها – أي: سقط من شدة عثرتها –، فقمتُ، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[1]، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الّذي أكره – أي: لا تضرّهم –، فعصيت الأزلام وركبت فرسي، تُقرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت – مطمئنٌ ساكنٌ كما كان حاله في الغار، فهو ﷺ موقنٌ بحماية الله له –، وأبو بكر ﷺ يُكْثِرُ الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررتُ عنها، ثم زجرتُها فنَهَضَتْ، فلم تَكَدْ تُخْرِجُ يديها، فلما استوتْ قائمةً، إذا لأثرِ يديها غبارٌ ساطعٌ – أي: منتشر – في السماءِ مِثْلُ الدُّخان، فاستقسمتُ بالأزلام، فخرج الّذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبتُ فرسي حتى جئتُهم، ووقع في نفسي ما لقيتُ من الحبْسِ عنهم، أنْ سيظهرُ أمرُ رسول الله ﷺ – أي: وقع في قلبه الإسلام لما رأى هذا الموقف وهذه الحماية من رب العالمين لرسوله ﷺ –، فقلت له: إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتُهم ما يريدُ الناسُ بهم، وعرضتُ عليهم الزَّادَ والمتاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي – أي: لم

(١) الأزلام: سهام لا ريش لها ولا نصل، مكتوب عليها: (لا)، و(نعم)، فكانوا في الجاهلية إذا أرادوا أمراً ضربوا بها فإن خرج (لا) تركوا، وإن خرج (نعم) فعلوا، وهو معنى الاستقسام بالأزلام .

يأخذا مني شيئاً ولم يُنقصا مالي -، ولم يسألاني، إلا أن قالا: أَخْفِ عَنَّا، فسألتُه أن يكتب لي كتابَ أَمْنٍ - أي: كتاب موادعة، فقد تيقن أن النبي ﷺ سيظهر، وينتشر دينه في الجزيرة وفي كل مكان، فطلب منه الأمان حتى لا يعاقب -، فأمر عامرَ بن فهيرة ﷺ، فكتب في رقعة من أَدَمٍ - وهو الجلد المدبوغ -، ثم مضى رسول الله ﷺ [1].

وفي بعض كتب السير والمغازي: أن النبي ﷺ أخبر سراقة بأنه سيُعطى سواري كسرى، فقد قال ﷺ لسراقة ونظر إلى ذراعيه: «**كأني بك قد لبِسْتَ سواري كسرى**»، وذكر البيهقيّ عن الحسن أن عمر بن الخطاب ﷺ ألقى إلى سراقة سواري كسرى بن هرمز فجعلهما في يديه فبلغا منكبيه، فلما رآهما في يدي سراقة قال: الحمد لله! سواري كسرى بن هرمز في يدي سراقة بن مالك ابن جعشم أعرابي، من بني مدلج![2].

وتأمل معي، متى تأتي البشارة من النبي ﷺ؟!، لم تأتِ وهو في المدينة، ولا بعد نصر وتمكين، وإنما تأتي وهو مطاردٌ، محاصرٌ، مهاجرٌ من مكة، وهو

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦)، وانظر أيضاً: «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٢٤٦- ٢٤٨)، و«إمتاع الأسماع» (٨/ ٣٢١- ٣٢٢).

(٢) انظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٠٣٣) (٦/ ٥٨١)، و«إمتاع الأسماع» (١٤/ ١٩٠).

في هذه الشدة وهذا الضيق يبشر بالنصر والتمكين وانتشار الإسلام، وسط المتابعة والمحاصرة والهم والحزن تخرج البشريات ويخرج الأمل من النبي ﷺ.

ومما حصل في طريق الهجرة، ما رواه أنس بن مالك ﷺ، قال: أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخٌ يُعْرَفُ، ونبي الله ﷺ شاب لا يُعْرَف، قال: فيلقى الرجلُ أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير[1].

فكان أبو بكر ﷺ يورِّي عليهم، ولا يريد أن يذكر اسم النبي ﷺ، لأن الوقت وقت خطر، وقريش تبحث عن النبي ﷺ.

وقد كسى الزبيرُ ﷺ النبيَّ ﷺ وأبا بكر الصديق ﷺ ثوبين جديدين حتى يدخلا بهما إلى المدينة؛ قال ابن شهاب: أخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبيرُ رسولَ الله ﷺ وأبا بكر ثيابَ بياضٍ[2].

وسمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً للمدينة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرَّة، فينتظرونه، حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا

---

(١) رواه البخاري (٣٩١١).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٣/ ٣٦٠).

يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما رجعوا إلى بيوتهم، أوفى رجلٌ من يهود على أطم من آطامهم- أي: حصن من حصونهم - فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جَدُّكُم الّذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف[1].

وقام أبو بكر ﷺ للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، وجاء مَن لم يرَ رسولَ الله ﷺ من الأنصار يُحَيِّي أبا بكر- يظنونه الرسول ﷺ -، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّل عليه بردائه، فعَرَفَ الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك – وهذا من تواضعه وأدبه وحيائه صلوات ربي وسلامه عليه -، فلبث رسولُ الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعَ عشرة ليلة، وأسَّسَ المسجدَ الذي أسَّسَ على التقوى، - وهو مسجد قباء - وصلَّى فيه رسول الله ﷺ[2].

وفي تلك المدة التي جلسها رسول الله ﷺ في قباء، جاء عليٌّ للمدينة بعد أن أدَّى الأمانات إلى المشركين في مكة، كما أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة فجاء له بزوجتيه سودة وعائشة، وببنتيه فاطمة وأم كلثوم، وبحاضنته أم

---

(١) انظر: «إمتاع الأسماع» (٨/ ٣٢٢).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٣/ ٣٦١).

أيمن، كما جا بأسماء وعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً، ثم بعد ذلك دخل النبي ﷺ المدينة طيبة الطيبة، بعد أربعة عشر يوماً جلسها في قباء .

وقد بين الإمام ابن هشام – في سيرته – تاريخ مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، نقلاً عن محمد بن إسحاق المطلبي، قال: قدم رسول الله ﷺ يوم الاثنين، حين اشتد الضحاء، وكادت الشمس تعتدل، لثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة، وذلك بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة [1].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



(١) انظر: «السِّيرة النّبوية» لابن هشام (١/ ٥٩٠)، وقال السلامي في«الروض الأنف» (٤/ ١٥٢) وهو يشرح كلام ابن هشام: «متى قدم الرسول ﷺ المدينة؟ كان قدوم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول وفي شهر أيلول من شهور العجم، وقال غير ابن إسحاق: قدمها لثمان خلون من ربيع الأول، وقال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة سنة، وكانت بيعة العقبة أوسط أيام التشريق» .

الفهرس

المقدمة ٥

العبرة والعظة من بداية أمر النبي ﷺ ٧

حالة مكة الدينية قبل الإسلام ٢٢

حادثة الفيل ٣٥

نسب النبي محمد ﷺ ٤٤

مولد الرسول ﷺ ٥٣

رضاعة الرسول ﷺ ٦٤

مرحلة الصِّبا للرسول ﷺ ٧٣

رحلة الرسول ﷺ الأولى إلى الشام ٨١

حرب الفجار وحلف الفضول ٨٨

زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها ٩٧

تجديد بناء الكعبة ١٠٤

البعثة ونزول الوحي على الرسول ﷺ ١١١

تدرج نزول الوحي وبعض من آمن بالنبي ﷺ ١٢٣

الدعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم ١٣٥

دعوة العشيرة الأقربين ١٤٤

الإيذاء الشديد لضعفة المسلمين ١٥٣

الإيذاء الشديد لبعض كبار المسلمين وأغنيائهم ١٦٤
إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ ١٧٢
المساومات والمفاوضات مع رسول الله ﷺ..... ١٨٠
إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما ١٨٩
الهجرة الأولى إلى الحبشة ١٩٦
الهجرة الثانية إلى الحبشة..... ٢٠٦
حصار الشِّعْب ٢١٥
يأس المشركين وعنادهم تجاه رسول الله ﷺ ٢٢٥
عام الحزن ٢٣٣
رحلة الإسراء والمعراج ٢٤٦
دعوته ﷺ بين القبائل ٢٥٥
بيعة العقبة الأولى..... ٢٦٥
بيعة العقبة الثانية ٢٧٣
الاستعداد للهجرة النبوية ٢٧٩
الهجرة النبوية حتى وصول الغار..... ٢٨٩
الهجرة من الغار حتى الوصول للمدينة ٣٠١
الفهرس ٣٠٩

بحمد الله تعالى

صدر للمؤلف

- ❖ الموسوعة الجامعة في الخطب النافعة (٤ مجلدات).
- ❖ الخطب الأندلسية.
- ❖ خطب وطنية .
- ❖ ومضات في تزكية النفس .
- ❖ الخشوع المفقود .
- ❖ تأملات في سورة الفاتحة .
- ❖ تأملات في فواتح سورة البقرة .
- ❖ تأملات في آية الكرسي .
- ❖ عبر ودلالات في سورة يوسف .
- ❖ لمحات من سيرة الصديق .
- ❖ اليوم الآخر ، مشاهد وتأملات .
- ❖ إضاءات حول تدبر القرآن .
- ❖ الإمام الرافعي ، عالم العرب والعجم .
- ❖ التجويد الميسر .
- ❖ الرحمة المهداة ﷺ ، محبته ونصرته .
- ❖ رمضان ، فضائل وأحداث .
- ❖ علامات الساعة الصغرى والكبرى .
- ❖ وقفات حول موسم الحج .
- ❖ تأملات في سورة الزلزلة.
- ❖ آداب قيادة السيارة.
- ❖ المباحث المرضية في المسائل الفرضية.